سلسلة البلاغة
للدكتور سعيد جمعة
(٤٠)

البلاغة
خـــارج الصنـــدوق

الأستاذ الدكتور

سعيد جمعة

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر فرع مدينة السادات

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٤١٤
جمعه، سعيد أحمد.
س . ج

سلسلة البلاغة للدكتور سعيد جمعة(٤٠) البلاغة خارج النسق/ سعيد أحمد جمعه. -ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

١٨٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم .

تدمك: 2–724– 308 – 977 – 978

١. البلاغة العربية .

أ - العنوان.

رقم الإيداع: ٢٤٧٨.

الناشر: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق – شارع الشركات– ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

هاتف– فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥

E-mail: *elelm_aleman@yahoo.com*

elelm_aleman2016@hotmail.com

2022

الفهرس

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصـــلاة والســـلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين. **وبعد:**

فإن البلاغة العربية ظلت منذ نشأتها محفوظة في صندوق الكلام، وظلت محـاولات التجـديد تـدور حول هذا الصـــــندوق لا تبرحـه، حتى ارتبط اللفظـان (البلاغة والكلام) بعضـهما ببعض، فلا يحضـر أحدهما إلا في حضـور الآخر، فـالبلاغــة بلاغــة اللفظ والكلام، وحين يتحـدث البلاغيون فـإنهم يتحــدثون عن بلاغة الكلام، فلكي تكون بليغا عليك أن تصـــنع كذا في الكلام، وأن تجعل في كلامك كذا وكذا، وظلت البلاغة إلى يومنا هذا بلاغة اللســـان والنطق، مع أن البلاغة كما فهمها الأوائل هي البيان، بمعنى: أن تُبِين عما بداخلك بصــورة مقنعة ومؤثرة، وهذا في الحقيقة لا يقتصـر على الكلام، لكنه يشـمل كل شــيء، كما قال الجاحظ: ("البيان: اســم جامع لكل شـــيء وراجع هذه الجملة: "اســم جامع لكل شــيء" كشـف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضـمير، حتى يفضــي الســامع الى حقيقته، ويهجم على محصـوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر، والغـايـة التي إليها يجرى القائل والسامع إنما هي الفهم والإفهام، فبأي شـيء بلغت الإفهام وأوضـحت عن المعنى فذاك هو البيان في ذلك الموضـع) [1].

فالجاحظ يجعل كل شيء كشف للمتلقي المراد هو من البيان، وكل شيء أزاح الســــتار عن مكنون النفوس هو من البيان، والكتاب الذ بين يديك يتناول البلاغة من خلال هذا الإطار، **أو كما سـميته:** البلاغة خارج صـندوق الكلام،

١- البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٧٦ المكتبة العلمية بيروت ١٤٠٦ هـ

ويحاول أن ينظر إلى عوالم أخرى للإقناع والتأثير، وليس سهلا نزع عباءة الكلام من المشهد، لذلك سأحاول أن أترسم هذا الطريق من خلال بيان من أوتي جوامع الكلم ﷺ، ومن نزلت إليه رسالة السماء ليبين للناس ما نزل إليهم، **قال تعالى**:

﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[سورة النحل:٤٤]

ومن وسائل هذا البيان: البيان بالسكوت، وبالإشارة، وبالخط، وبالعقد، وبالحال... وكل ما يمكن تحميله للمراد فهو من وسائل البيان، ليتبين ما في هذه الأمور من بلاغة تفتح عوالم أخرى خارج صندوق اللفظ. وتعلم الجيل القادم أن الإبانة عما في الضمائر - من مشاعر، ومعاني، ورغبات، وأحاسيس - لا يقتصر على الكلام، والذي أعتقده أن الكلام يشمل المنطوق وغيره، وأن اللغة تشمل المسموع وغيره، وكل شيء حمّلته معانيك، وجعلته وسيلة تواصل بينك وبين غيرك هو من اللغة.

وقد بنيت هذا الكتاب على ثلاثة فصول، كلها تحدثك عن البلاغة خارج الصندوق، أعنى خارج اللفظ، ليكون هناك باب آخر تحاول البلاغة أن تسلكه، وطريقا آخر يحاول هذا العلم أن يرسمه. **وقد جعلت هذا الكتاب في ثلاثة فصول مسبوقة بمقدمة ومهورة بخاتمة:**

- **جاء الفصل الأول بعنوان:** البيان بالسكوت،
- **وجاء الفصل الثاني بعنوان:** البيان بالإشارة.
- **وتحدثت في الفصل الثالث عن:** البيان بالوسائل التعليمية.

وكان كل فصـــل مشـــتملا على توجهين: الأول التوجه النظري، حيث اعتمدت على اســـتنباط ما قاله الســـابقون في هذه الأبواب، والآخر التوجه التطبيقي: حيث جعلت حديث رسول الله ﷺ ميدانا للتطبيق لهذه البلاغة.

وأريد أن أنبه هنا أن الباب مازال مفتوحا لمن أراد أن يخرج من عباءة البلاغة الكلامية، وأن يفتح لهذا العلم الجليل طُرقا جديدة. وأســـأل الله تعالى الســداد والرشــاد، والهدى والرضــوان، وصــلى الله على النبي العدنان وعلى آله وصحبه أجمعين.

سعيد جمعة

الفصل الأول:
البيان بالسكوت

الفصل الأول

البيـــان بالسكـــون

توطئة:

لا توجد أمة في حاجة إلى السـكوت الآن مثل أمتنا العربية، بعد أن أمسى الكلام حرفة من لا حرفة له، والخوض في كل شيء صنعة من لا صنعة له، وصار أغلب الناس يجيد الكلام، ولا يجيد العمل، ويبرع في الجدال ولا يبرع فيما سواه، وبخاصة بعد أن فتحت أبواب السماء بالقنوات الفضائية، وأوغل العرب فيها بغير رفق، في الوقت الذي يرى أعداؤنا هذا التهارش بالألفاظ ويهزون أكتافهم عجبا لهذه الأمة التي لا تجيد إلا الكلام.

وكنت أنظر إلى بيان النبي –ﷺ– فأرى سكوته أكثر من كلامه، وصمته أطول من نطقه، مع أن مهمته في الدنيا هي البيان للناس، **كما جاء في قوله تعالى:–**

﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ... ﴾

[سورة النحل:٤٤]

مما يعني أن السكوت –في بعض الأوقات وبعض السياقات– بيان، لأنه يحمل من الدلالات –في بعض الأحيان– ما لا يحمله اللفظ، وقد لا يعبر اللفظ عن مكنونات القلب وقد تغلق الآذان أمام الكلمات، أو يحاط البليغ بأناس" جعلوا أصابعهم في آذانهم " وتواصوا بأن لا يسمعوا، وتعاهدوا

على اللغو والتشـــويش، في هذا الوقت تصـــير الكلمات عديمة القيمة، ويبرز السكوت ليحمل من الدلالات، ما لا تحمله الكلمات.

وهذا الفصل يحاول أن يقف على هذه الدلالات ويُبين نسبها من البلاغة العربيـة، ويفتح البـاب لبلاغـة أخرى غير بلاغـة اللفظ، ودلالات أخرى غير دلالات الكلام، وعالم البيان لا يمكن أن يقتصر على اللفظ، ويترك عوالم أخرى تحمل من الدلالات والمعاني الكثير وقد امتلأ بها القرآن الكريم والسـنة المشـرفة والتراث الإنساني عامة.

وسـوف أتـنـاول في هـذا الـفـصـل عـدة مـبـاحـث وهـي:

المبحث الأول: الفروق اللطيفة بين السـكوت وما في معناه، مثل (الصـمت – الإمساك – الإعراض – الإنصات.... إلخ)

المبحث الثاني: السكوت ومنزلته في عالم البيان.

المبحث الثالث: أحلل مواضـع السـكوت في بيان المعصـوم كاشـفا ما أراه من دلالات، ووجه البلاغة في إيثار السكوت فيها على الكلام.

ثم ألخص ما يتبين من خلال التحليل، وأتبع ذلك ببعض التوصـــيات للسائرين على الدرب للكشف عن وجوه البلاغة الجديدة.

المبحث الأول

فروق في الدلالات

توطئة:

لكل كلمة في لغة العرب أسرة دلالية تتصل بها من قريب أو من بعيد، وتكوّن معها معجما خاصا، بحيث إذا ذكرت استدعى الذهن هذه العائلة التي تنتمي إلى خيط واحد، ونسب واحد، وشجرة واحدة، وهذا الخيط قد يظهر جليا حينا، وقد يخفي أحيانا أخرى.. وكل ما يدور حول جذر لغوي واحد ينتمي - غالبا - إلى عائلة واحدة، وهذا ما فطن إليه العلامة ابن فارس في معجمه النفيس " مقاييس اللغة "حيث أداره على مفهوم أن الجذر الواحد يدور حول معنى واحد أو أصل واحد، وقليل من الكلمات ما يدور حول أكثر من معنى، وهذا المعنى الأصلي هو ما تعارفت عليه العرب، واستحضرته في كل مناسبة ذكر فيها اللفظ، أو إحدى مشتقاته، ومهما بالغ السياق في البعد عن هذا المعنى الأصلي إلا أنه حاضر في الذهن، قائم في الكلام.

وهناك قرابة أخرى ورحم آخر لا يقل في الاعتلاق عن رحم الأصل الواحد وهو رحم المترادفات أو الكلمات التي تتلاحظ معانيها، وتتجاوب دلالاتها، وإن لم يكن بينها اشتقاق لغوى، كأن (يقال برأ الله الخلق، وفطرهم، وجبلهم، وخلقهم، وأسرهم وذرأهم، وأنشأهم، وكونهم، وصورهم، وسواهم، وأوجدهم، وأحدثهم، وأبدعهم، وأبدأهم) [1]

فترى المعنى الأصلي ممدوداً بكثير من الكلمات ووكل منها تحمل خصوصية تناسب سياقا ومقاما خاصاً، وهذا يستدعي أن أقول: إن **للسكوت**

١- نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد لإبراهيم اليازجي اللبناني ص ١ مكتبة ملتقى أهل التفسير على الإنترنت.

أســرة دلالية يدور في فلكها، أو تدور في فلكه، وهي أســرة معنية بترك الكلام، وعدم النطق، والإعراض عن اللفظ، ومن هذه العائلة:

(الصمت، والإمساك، والإنصات، والإطراق، والوجوم، والإعراض.. إلخ)

فكل ذلك متصـــل بالســكوت من قريب أو من بعيد، وســوف يتعرض البحث له، لكن الذي يســتوجب الآن أن أبينه، بعض الخصـــوصـــيات لهذه المصطلحات ولتكن البداية مع السكوت.

السكوت:

يقول ابن فارس:(السين والكاف والتاء يدلُّ على خِلاف الكلام.)[1]

(فالســكوت مختص بترك الكلام، والسُّــكُوتُ خلافُ النُّطْقِ، والســكت: يختص بســكون النفس، ولما كان الســكوت ضــربا من الســكون اســتعير له في قوله:

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ ...﴾ [سورة الأعراف:١٥٤][2]

و(أصل السكوت: السكون والإمساك)[3] وهذا يعني أن المقام يحتاج إلى كلام لكن أوثر عليه عدم الكلام، وعليه فلا يقال "سكوت" إلا إذا صح في المقام كلام.

وقد يكون الســـكوت ترك الحركة، كما في حديث ماعِزٍ فرَميناه بَجَلاَمِيد الحَرَّة حتى سكَت، أي: سكَن، ومات، وكأن حركته واطرابه من الحجارة صوت، ولكنه صوت يرى بالعين، فلما زالت هذه الحركة قيل على سبيل المجاز سكت.

١- المقاييس في اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس "سكت " دار الفكر بيروت ت / شهاب الدين أبو عمرو.

٢- الأعراف/١٥٤ والمفردات في غريب القرآن الكريم للراغب ١الأصفهاني ١ / ٦٦٦

٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي طبعة دار الغد القاهرة ١٩٩٩ مـ ٧ / ٢٩٢

وقد يكون السكوت تَرْك رفْعِ الصوت بالكلام، يقول ابن حجر في حديث: كانوا يفتتحون الصــلاة بالحمد: (لا يلزم من قوله: كانوا يفتتحون بالحمد أنهم لم يقرءوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وقد أطلق أبو هريرة السكوت على القراءة سرا)[١] وفي حديث زيد بن أرقم (كنا نَتَكلَّم في الصـــلاة حتى نَزَلَت وقُومُوا للهِ قَانِتِينَ فأمْسَكْنا عن الكلام أراد به السُّكوت)[٢]

فملامح هذه الكلمة "الســكوت" تنحصـــر في ترك الكلام على الكلية، أو ترك الجهر به، فالأصل في دلالة السكوت هو ترك الكلام.

الصمت:

(الصاد والميم والتاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إبهام وإغلاق، من ذلك صَمَتَ الرّجُل، إذا سَكَتَ ومنه قولهم: لقيتُ فلاناً ببلدة اصمت، وهي القَفر التي لا أحد بها، كأنها صامتةٌ ليس بها ناطق.)[٣]

وفي القرآن الكريم:

﴿...سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾[سورة الأعراف:١٩٣]

أي سكتم سكوتا طويلا، (فصمت وأَصْمَتَ: أَطالَ السكوت.. ويقال للرجل إذا اعْتَقَل لسانُه فلم يتكلم: أَصْمَتَ، وفي الحديث: أَصْمَتَتْ أمامه بنتُ العاص أَي اعْتَقَل لسانُها يقال: الصَّمْتُ حُبْسَة،.... ويقال فـــي مَثَلٍ: سَكَتَ أَلفاً ونَطَقَ خَلْفاً، للرجل يُطيل الصَّمْتَ، فإِذا تكلم تكلّم بالخطأ، أَي سكت عن أَلف كلمة ثم تكلم بخطأ)[٤].

١- فتح الباري شرح صحيح البخاري لا بن حجر العسقلاني – طبعة دار الشروق مصر ١٩٨٧- ٢ / ٢٢٧

٢- النهاية في غريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٦٦

٣- مقاييس اللغة لابن فارس (صمت)

٤- لسان العرب لابن منظور ط دار الكتب بيروت ٢ / ٢٥٤ ، ٦ / ٤٤ ، ٩ /٨

وفي الحديث (والبكر رضاها صمتها) [1] **أي:** تبين بطول صمتها.

فملامح الصـــمت تظهر في إطالة الســكوت، وحبســة اللســان، وكأن في الصـــمت قوة خارجة ترغم المتكلم على الســكوت وإطالة هذا الســكوت، أو حبس النفس عن الكلام، وفي حديث "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت " جاء في رواية البخاري" أو ليصمت ويعلق المناوي على الفرق بين السكوت والصمت فيقول: (إن الصمت أخص، لأنه يعني: السكوت مع القدرة وهذا هو المأمور به)[2]

الإطراق:

الإِطْراقُ: هو السكوت عامة، وقــيل: السكوت من فَرَقٍ ورجل مُطْرِقٌ **ومِطْراقٌ وطِرِّيق:** كثـير السكوت، وأَطْرَقَ الرجل إِذا سكت فلـم يتكلـم، وأَطْرَقَ أَيضاً أَي أَرخى عينيه ينظر إِلـى الأَرض. وفـي حديث نظر الفجأة، قال ﷺ: أَطْرِق بصَـرك، **والإِطْراقُ:** أن يُقْبل ببَصـره إلى صَـدْرِه ويَسْكُت، **وفي الحديث** "فأطْرق ساعَة " أي سَكت وفي حديث آخر "فأطْرَق رأسَه" أي أمالَه وأسْكَنه)[3]

وهذا يعني أن في الإطراق بعض الخصــوصــية، **فمنها:** أنه ناشــئ من حركة القلب بالخوف، **ومنها:** أن فيه حركة من العين إلى أسفل جهة الصـدر. **ومنها:** أن فيه مدة طويلة، أو تكرار السكوت حتى يعرف به صاحبه.

١- أخرجه أحمد في المسند ١٩٢/٤) وانظر المفردات للراغب الأصفهاني (صمت)

٢- فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي المكتبة التجارية الكبرى – مصر ١٣٥٦ ط الأولى ٦ / ٢١٠

٣- النهاية في غريب الحديث ٣ / ١٢٢

الإنصات:

(**الإنصات:** هو السكوت للاستماع أو السكوت والاستماع) [1].

وقال ابن حجر: (وقع التفريق بين الانصات والاستماع) **في قوله تعالى:**

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ...﴾ [سورة الأعراف:٢٠٤]

فالإنصات هو السكوت، وهو يحصل ممن يستمع وممن لا يستمع، كأن يكون مفكرا في أمر آخر، وكذلك الاستماع قد يكون مع السكوت، وقد يكون مع النطق بكلام آخر لا يشتغل الناطق به عن فهم ما يقول الذي يستمع منه، وقد قال سفيان الثوري **وغيره:** أول العلم الاستماع، ثم الانصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر، **وعن الأصمعي:** "تقديم الانصات على الاستماع، وقد ذكر على بن المديني أن الانصات من العينين، **فقال بن عيينة:** وما ندري كيف ذلك؟ قال: إذا حدثت رجلا فلم ينظر إليك لم يكن منصتا) [2] **الوجوم:**(الوُجومُ: السكوتُ على غَيْظٍ،، **وقال أبو عبيد:** إذا اشتدَّ حُزْنُه حتى يُمْسِك عن الطعامِ فهو الواجِم، والواجِمُ: الذي اشتدَّ حُزْنُه حتى أَمْسَكَ عن الكلام، **ويقال:** ما لي أَرَاكَ واجِماً؟ **وفي حديث أَبي بكر:** أَنه لَقِيَ طَلْحَة **فقال:** ما لي أَراك واجِماً؟ أَي مُهْتَمّاً، والواجِمُ: الذي أَسْكَتَه الهمُّ وعَلَتْه الكآبةُ، **وقيل:** الوُجُومُ الحُزْنُ) [3] فالوجوم: سكوت ناشئ من الهم والحزن، ويصاحبه هيئة خاصة تبدو للناظر، تحمل دلالات الكتمان على شاغل تحتار فيه النفوس.

١- الفائق في غريب الحديث ٣ /٤٣١

٢- فتح الباري ١ / ٢١٧

٣- لسان العرب لابن منظور (وجم)

الإمساك:

(الميم والسين والكاف أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على حَبْس الشيء، والإمساك: البُخْل، وأَمْسَكَ عن الكلام سكت، وما تَمَاسَكَ أن قال ذلك، **أي**: ما تمالك، وأصل الإمساك: حبس النفس عن الفعل...والإمساك والكف يستعمل في الامتناع عما تدعو إليه الشهوة) [1] .

ولعلك تلحظ في الإمساك معنى الاعتلاق، بشيء حتى لا يقع في محذور، كما تلحظ فيه أن السياق يستدعي الكلام لكن السكوت فُضل عليه.

الإعراض:

يُعدّ الإعراض مبالغة في السكوت، لأنه يصاحبه حركة من الرأس والوجه إلى الجانب، أو إلى الخلف، وكأن الصمت وحده لا يكفي، فتدخل الوجه ليضيف إلى السكوت ما يدل على استحالة الكلام، لأن الإعراض عن الشيء هو الصد عنه، وغالبا ما يقترن الكره والغضب مع الإعراض. [2]

١- الفروق لأبي هلال بتصرف.. ص ٢٩٦والمقاييس ومختار الصحاح ١ / ٢٦٠

٢- راجع لسان العرب ٢ / ٥١٥

المبحث الثاني

منزلة السكوت في عالم البيان

توطئة:

تتنوع وسائل البيان البشري عامة، وتتكاثر أمام الباحثين وسائل التعبير عن المعاني، وهذا التنوع الهائل تراه شاخصا في هدي النبي ﷺ، وهو يوصل دعوته للناس، ويقف على رأس هذه الوسائل: **اللفظ المنطوق،** فهو مدار البلاغة العربية وحلبتها التي يتسابق أهلها في استخراج مكنوناته، وكشف أستاره، وهو النبع الذي لا ينضب، ولا يجف، وهو الذي حمل مراد الله لعباده إلى يوم يبعثون؟

وهو على العموم أفضل من السكوت على العموم.

لذا لن يستطيع أحد أن يُعرض عنه، أو يستبدله بغيره، فهو الركن الأول في البيان، **والذي تراه في قول الله تعالى حكاية عن أهل النار:**

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة المُلك:١٠]

لأن البيان جاءهم من طريقين، **الأول:** هو البيان باللفظ، والذي يناسبه **قوله:** "نسمع".

والآخر: البيان بغير اللفظ، والذي يناسبه **قوله:** "أو نعقل"

ففهم المعاني يأتي عن طريق السمع، وهو إحدى الحواس، أو عن طريق النظر، أو غير ذلك من الحواس، التي تغذي المتلقي، بالدلالات التي تُحمل بوسائل مختلفة عن اللفظ المسموع، ولا يمكن إغفال البيان بها، حتى وإن كانت تدور في كنف اللفظ، وترتبط به من قريب أو من بعيد.

وفي تفسير ابن المقفع للبلاغة يقول: (البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الاشارة ومنها ما يكون في الحديث) [1].

ولا تعجب حين ترى خلف السكوت بلاغة قد لا تجدها في بلاغة الكلام، فالسكوت جزء من البيان الذي علمه الله تعالى للإنسان، **وامتن عليه بذلك فقال سبحانه:**

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾

[سورة الرحمن١ :٤].

ورحم الله الإمام عبد القاهر، فلقد قال لافتا الانتباه إلى مثل ذلك في باب الحذف: (هذا باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، **فإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن)** [2].

فالإمام عبد القاهر وإن كان يتحدث عن الحذف أثناء الكلام، إلا أن إشارته في الإعراض عن اللفظ، وعدم التصريح به، وأنك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، يشمل السكوت عن الكلام أيضا، ففي مركوز الفطرة أن السكوت قد يفيد من المعاني ما لا يفيده اللفظ.

وحين يفهم الصحابة شيئا من رسول الله ﷺ، ثم لا تجد لفظا منطوقا، فينبغي أن تقف لتسأل: من أين فهموا ما فهموه؟ وما وسيلة البيان التي رجعوا إليها في فهم تلك المعاني مع عدم وجود اللفظ؟ فالحياء مثلاً، وهو خلق الإسلام

١- البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٧٦ المكتبة العلمية بيروت ١٤٠٦ هـ

٢- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني- الخانجي القاهرة ص ٤٩

الأول لا يدل عليه إلا بالسكوت، **والعرب تقول في خطبها:** (ولا يحملك الحياء على السكوت عما يضرك ألا تبينه، فإن الكلام سلاح السلم، وبالأنين يعرف ألم الجرح) [1]

ومع ذلك لم يخل السكوت من معان أخرى، قد يدل عليها بالألفاظ، لكن المتكلم في بعض السياقات يؤثر الدلالة عليها بالسكوت، لأنهم رأوا فيه زخما من الدلالات التي قد لا يقوى اللفظ على حملها، أو يطول به السياق، فتراهم **يقولون:** وربما كان السكوت جوابا، ووضعوا في كتبهم أبوابا للسكوت وفضله، **وقالوا:** بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس) [2]

ومن هنا كان الوقوف على البيان بغير اللفظ أمرا مهما للباحث عن البيان العربي، وهذا أمر لا يمكن إغفاله، والاكتفاء بالألفاظ، فما دام هناك معنى مفهوم فهناك وسيلة للبيان لا بد من الإمساك بها، وإظهارها لأهل الفصاحة، والبيان.

ولقد سبق لي بحث في البيان بالإشارة في حديث النبي ﷺ وإذا شاء الله تعالى أتبعت هذا البحث بالوسائل الأخرى للبيان، من خط، وعقد، وحال، فهذه هي وسائل البيان البشري على الإطلاق، ويحتل السكوت فيها مرتبة عالية، تكاد تلي البيان باللفظ ....، لماذا؟

لأنه قسيم الكلام في البيان، ولأنه الوسيلة الأكثر استخداما في حياة الرسول الكريم، الذي أُرسل ليبين للناس، ثم تراه يسكت أكثر مما يتكلم، وهذا

١- جمهرة خطب العرب لأبي زيد القرشي ٣ / ٢١٤

٢- المستطرف ١/ ٦٩، ١٨٧

دليل واضـــح على أن ســكوته ﷺ كان وســيلة من وســائل البيان للناس، وهي وســـيلة تحتاج إلى تحليل وفهم، كما أن كلامه يحتاج إلى تحليل وفهم، (فعن أبي الدرداء أن رســـول الله ﷺ **قال:** "ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما ســكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فان الله لم يكن ينسى شيئا".[1].

لاحظ هنا أن رســول الله جعل الســكوت ذا دلالة، وهي دلالة العفو والمسامحة في أمر الحلال والحرام، **فقال:** "**وما سكت عنه فهو عفو**".

فإذا جئت لتبحث في شـأن المعاني عامة، والأخلاق خاصــة فإنك ترى معاني كثيرة يدل عليها بالسكوت، **فمثلا التواضع:** يكون غالبا بالسكوت، وكظم **الغيظ:** يكون بالســكوت و**في الحديث:** "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت"[2]

فليس معنى "أو ليسكت" أنه لا كلام عنده، ولا معنى في قلبه، وإنما عنده كلام كثير، لن يؤدي إلى خير، ولكي يفهم السامعون ذلك دل عليه بالسكوت.

وفي الحديث أن رســول الله ﷺ **قال:** "إن جبريل وميكائيل أتياني فقعد جبريل على يميني، وميكائيل على يساري، **فقال جبريل:** اقرأ القرآن على حرف، **فقال ميكائيل:** اســتزده، حتى بلغ ســبعة أحرف، فنظرت إلى ميكائيل، **فسـكت** فعلمت أنه قد انتهت العدة[3].

١- تفسير ابن كثير ٣ / ١٣٢ وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ١/ ٢٧٦

٢- صحيح مسلم ١/ ٦٩

٣- شرح الزرقاني محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٢ / ١٦ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ

لا حظ هذا " **فسكت فعلمتُ**" يعني أنه ﷺ– فهم من السكوت معنى، وهذا المعنى المفهوم لم يدل عليه بلفظ.

وعلى هذا السبيل سار الصحابة ففهموا من رسول الله، ما قاله وما سكت عنه، وما صــرح به، وما لم ينطق به، وكان ﷺ يســكت حين لا يرى للكلام مقاما يناسبه. ومن ذلك: أنه ﷺ دعا بني هاشم، حين نزل قول الله تعالى:

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء:٢١٤]

لا حظ هنا أنه مأمور بالإنذار، وعليه أن يبدأ بالأقربين – " فحضــــروا، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمســة وأربعين رجلا، فبادره أبو لهب، **وقال:** هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصـــــباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحســــبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيســــر عليهم من أن يثب عليك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحدا جاء على بني أبيه بشر مما جئت به.... **فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس)**[1]

نعم سكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم. والسؤال: لم سكت وقد جمعهم ليبلغهم؟ وهل الســـكوت هنا أبلغ أم أن الكلام لن يجدي نفعا؟ وما الذي فهموه من السكوت؟ أم أن السكوت لا يدل على شيء؟

لقد سكت كما سكتت السيدة العذراء مريم، حين قالت:

﴿ ...إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ [سورة مريم:٢٦]

١- الرحيق المختوم لصفي الدين المباركفوري ص ٥٥ دار الفكر بيروت ١٤٠٤هـ

٢- البيان والتبيين ١ / ٥٤

لأن الكلام في هذا المقام لن يغني شـــيئا، فالجميع مشـــحون بحالة من الانفعال التي تجعل الآذان مغلقة عن سماع أي شيء.

إن الذي لا أشـــك فيه: أن الســـكوت هنا حمل من الدلالات مالا يحمله الكلام، هذه الدلالات تســتطيع أن تتفكر فيها حين تدرك أن القصـــد ليس إلقاء عبارات في الهواء، ثم المضـــي قدما دون أن يلوي على شـــيء، بل القصـــد توصــيل رســالة ذات ملامح محددة، وهذه الرســالة لا يســتطيع اللفظ ولا المقام ســـاعتها أن يتحملها، فأرجئت إلى وقت آخر، لأن المقام مشـــحون بالتوتر، والانفعال الذي يطمس الكلام طمسـا، وحين تُعرض القلوب عن الإنصــات فمن الحكمة الصــمت. كما أنك تلحظ أن السـكوت حمل دلالات الغضـب، والحزن، والشـعور بخيبة الأمل في أقرب الناس إليه، كما حمل الإصـرار على ما دعاهم إليه، وإرجائه إلى وقت آخر، تهدأ فيه النفوس، وتلين له القلوب.

المبحث الثالث

تحليل مواضع السكوت في بيان النبي ﷺ

السكوت أخو الرضا:

إن الرضا في البيان العربي لا يكاد يدل عليه إلا بالسكوت مثل موافقة البكر على الزواج فحياؤها يمنعها من الكلام وفي الحديث: " لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن قالوا يا رسول الله وكيف إذنها قال أن تسكت) [1]

فالسكوت هنا رضى وموافقة ولا مانع من الإنكار والرفض، ولقد جرى العرف العربي بأن السكوت الناتج عن الحياء يعني الموافقة. وهنا سؤال: من أين فُهمت الموافقة ؟

إنها لم تفهم من السكوت فقط، ولكنها فهمت من الأحوال والملابسات المصاحبة للسكوت، وهذه الأحوال تشير إلى أن الأبلغ، والأعلى في البيان عن الموافقة يكون في هذا المقام بالسكوت، لماذا؟ لأنه سؤال عن الزواج، وسؤال للفتاة البكر، وسؤال من الولي وليس من صاحبةٍ أو جارة، وكل ذلك يدفع إلى اتجاه السكوت عند الرضى، لأنه الأبلغ من الكلام، ولأنه دليل الحياء والدين.

وقد يدل على الرضى حين يبتدأ المقام بالرفض، ثم يتبع ذلك بالسكوت فيفهم من السكوت التالي للرفض أنه موافقة ورضى، ومن ذلك حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه قال: " مرضت فأرسلت إلى النبي ﷺ، فقلت دعني أقسم مالي حيث شئت، فأبى، قلت فالنصف؟ فأبى، قلت: فالثلث؟ قال فسكت

١- صحيح مسلم ٢ / ١٠ ٥٢

بعد الثلث، فكان بعدُ الثلث جائزا "[1] فالسكوت هنا لم يكن مطلقا، وإنما جاء بعد رفض منطوق، فلما سكت بعد الكلام دل ذلك على أن السكوت يفيد الموافقة. لكن يبقى السؤال: لم أوثر السكوت هنا؟

إن إيثار السكوت هنا يشير إلى أن الموافقة غير مستقرة الاستقرار الكامل، ولذلك جاء في بعض الروايات الموافقة بالكلام، حيث قيل: الثلث، والثلث كثير، فكأن السكوت هناك موافقة منقوصة، أو ليست كاملة. وقد نقل البيضاوي (أنه ﷺ مر بعزف دف، فقال: ما هذا؟ قالوا: ختان، فسكت.) [2] فهل السكوت هنا أمارة الرضى؟

الظاهر يؤيد هذا، ولا ينبغي الزيادة على ذلك، فالمقام يباح فيه ما يباح عند كل مناسبة سعيدة، ولا يعني هذا أن السؤال كان نتيجة لسماع ما يخالف الشرع، ولكنه بسبب سماع ما ينبغي المشاركة فيه من رائد الناس، وكبيرهم، فلما كان المقام لا يستحق كبير عناء، اكتفى ﷺ بالسكوت، تعبيرا عن رضاه بما يسمع من إظهار البشر والسرور بالمولود.

****

ووقع في كتب الأصول ما يسمى بالإجماع السكوتي، فالإجماع نوعان: إجماع صريح يبدي فيه كل مجتهد رأيه ويعلنه، وإجماع سكوتي أو ضمني حيث يكتفي المجتهد فيه بالصمت بعد أن يعلم بما حكم به الآخرون. وصورته إعلان فتوى من أحد المجتهدين في مسألة اجتهادية عرفت أمامه، وعلم بها بقية المجتهدين فسكتوا ولم يعلنوا رفضها، فالسكوت هنا إقرار بالفتوى،

---

١ – صحيح مسلم ٣ / ١٢٥٢ رقم ١٦٢٧.

٢ – تفسير البيضاوي ت ٧٩١ هـ دار الفكر بيروت ١٤١٦هـ ت / عبد القادر عرفات حسونه ٣ / ٢٧٣

لأن المفروض في المجتهد العدالة، والعدالة تقتضي إعلان المخالفة متى وجدت دواعيها.

فالسكوت – هنا – رضاء معتبر، ولا يكون السكوت كذلك إلا إذا فهم المجتهد الأمر، وأمن من الجور.

والمثبتون لحجية الإجماع السكوتي يختلفون في درجة حجيته. فبعضهم يرى أن الإجماع السكوتي حجة قطعية، متى ثبت فهو كالإجماع الصريح سواء بسواء، والبعض الآخر يقولون بأنه حجة ظنية، لأن ثبوت الإجماع السكوتي أساسه رجحان احتمال الموافقة على المخالفة، وهو يورث الشبهة في دلالة الإجماع، ومع الشبهة لا وجود للقطعية، فيترجح القول بأنه حجة ظنية، إلا إذا كان هناك نص على أن المفهوم هو الرضا، أو أن المقام لا يفهم منه إلا الرضا.

ومن ذلك ما رواه سيدنا (جابر بن عبد الله، أن أبي بن كعب: جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله عملت الليلة عملا قال: ما هو؟ قال: نسوة معي في الدار قلن: إنك تقرأ ولا نقرأ فصل بنا، فصليت ثمانيا والوتر، [1] قال: **فسكت رسول الله** ﷺ قال فرأينا أن سكوته رضا) .

فهذا نص على أن المفهوم من السكوت هو الرضا، ولو كان الأمر فيه مخالفة لنبهه إلية، أو نهاه عنه، أو أضاف إليه من الشروط ما يصححه، وكل ذلك لم يكن، مما دل على صلاة الرجل بالنساء في البيت جائزة ولا شيء فيها.

****

١- مجمع الزوائد للهيثمي ٢ /٥٧

ومما يؤكد هذه الدلالة ما جاء عن استخلاف سيدنا أبي بكر على الناس فلقد جاء (عن أبي بكر بن عياش أنه **قال:** قال لي الرشيد: كيف استخلف أبو بكر رضي الله عنه ؟

قلت: يا أمير المؤمنين **سكت الله وسكت رسوله وسكت المؤمنون.**

فقال: والله ما زدتني الا عمى، قلت: مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية أيام فدخل عليه بلال فقال: مروا أبا بكر يصلي بالناس، فصلى بالناس ثمانية أيام والوحي ينزل، فسكت رسول الله لسكوت الله، وسكت المؤمنون لسكوت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعجبه ذلك وقال بارك الله فيك)[1] .

فالصحابي الجليل استنبط من السكوت الذي كان من السماء، وعدم استحداث وحي في شأن صلاة أبي بكر بالناس، وكذا سكوت رسول الله ثمانية أيام، وعدم استبدال أبي بكر بغيره أثناء المرض، أو حتى جعل الصلاة بين مجموعة من الصحابة، بحيث يصلي كل واحد منهم يوما، بل ظل أبو بكر وحده يصلي بالناس، بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك سكت الصحابة على هذه الولاية في الصلاة، وفي الناس من هو أقرأ من أبي بكر رضي الله عنه ، كل هذا السكوت فهم منه الصحابي الجليل ارتضاء أبي بكر لخلافة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موته، وقد كان.

والقاعدة التي تكاد تلمحها من وراء تلك النصوص أن السكوت على شيء هو رضا به، وموافقة عليه، ما دامت القدرة على الرفض موجودة، ولا يوجد مانع من الاعتراض من داخل النفس، أو من خارجها.

١- سير أعلام النبلاء ٨ / ٥٠٦ وميزان الاعتدال في نقد الرجال ٧ / ٣٣٩

دلالة السكوت على الرفض

إذا كان السكوت في بعض المقامات يفيد الرضى، فإنه في مقامات أخرى يفيد الاعتراض والرفض، ولا شك أن للسياق والمقام أثراً بالغاً في فهم هذه الدلالة ومن ذلك ما جاء عن النبي ﷺ أنه كان جالسا في المسجد في أصحابه، فجاءه اليهود " فقالوا يا أبا القاسم، ما ترى في رجل وامرأة – منهم – زنيا؟

فلم يكلمهم النبي ﷺ، حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب، **فقال:** أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على موسى على من زنى إذا أحصن؟ **فقالوا:** يحمم وجهه، ويجبه، ويجلد، (والتجبية أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما ويطاف بهما) **قال: وسكت** شاب منهم فلما رآه النبي ﷺ سكت ألظّ به النشدة، **فقال:** اللهم إذ نشدتنا، فإنا نجد في التوراة الرجم: قال النبي ﷺ فإني أحكم بما في التوراة، فأمر بهما فرجما)[1]

فهنا موضعان للسكوت، الأول من رسول الله حين سئل، والآخر من الشاب اليهودي حين سئلوا عن حكم التوراة، وكلا الموضعين يفيد الرفض.

أما سكوت النبي، وعدم إجابته على سؤالهم فلأنه أراد أن يحكّم فيهم التوراة، ففيها حكم الله، لذلك **قال القرآن الكريم:**

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ...﴾ [سورة المائدة:٤٣]

فالسكوت هنا دليل على أنهم ما أرادوا حكم الله وإنما وهموا بأن يكون هناك عند رسول الله حكم أخف من الرجم.

١- سنن أبي داوود ٤ / ١٥٥

أما سكوت الشاب اليهودي فمرده الاعتراض على إجابة اليهود بأن حكم التوراة هو الجلد، وهذا ما دعى رسول الله ﷺ إلى أن يلتفت إليه ويعيد مناشدته، لعلمه أن سكوته ناشئ عن رفض.

فليس كل من سكت يقال: راض، وإلا لأصبحنا جميعا راضين بهذه الأحوال التي ألمت بالأمة المسلمة، وهي أحوال لا ترضي أحدا، فالسكوت في زماننا دليل الرفض الصارخ، والاعتراض الذي لا يقوى الكلام على حمل مضامينه، وإن فهم الغافلون بأن السكوت رضا، فذرهم وما يفترون، فهل هذه المنكرات التي في حياة الناس حق وعدل؟!!!!!

هل هذه المنكرات التي يقف من خلفها الجبابرة والظلمة، هل السكوت عنها يدل على الرضى؟!!!! أم أنه يدل على العجز، والضعف الذي ألم بالأمة حتى صارت لا تقوى على المنكر إلا بالسكوت عنه، واكتفت بتغييره بالقلب؟!!! وأين حديث " من رأى منكم بنو فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[1]؟!! وهل ترى إيماننا أضعف من إيمان الناس في ذلك الزمان الذي صار السكوت دلالة الرفض، وليس دلالة الرضى؟!!!.

****

ومن شواهد دلالة السكوت على الرفض ما جاء عن أبي مرثد الغنوي أنه كان يحمل الأسارى بمكة، وكان بمكة بغيّ، يقال لها عناق، وكانت صديقته، **قال:** جئت إلى النبي ﷺ، فقلت يا رسول الله أنكح عناق؟ **قال:** فسكت عني، **فنزلت:**

١- صحيح مسلم ١ / ٦٩

﴿...وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

[سورة النور:٣]

فدعاني فقرأها علي، وقال لا تنكحها. [١]

فالسكوت هنا من المعصوم دل على الرفض، وهو هنا أبلغ من الكلام، لأن في الكلام مرورا على اسم هذه البغي، أو تعريضا بها، وهذا لا يناسب مقام النبوة، ولا أهداف الإسلام في الستر، فكان السكوت هنا أبلغ في الرفض من التصريح.

****

وفي فتح الباري في قصة المرأة التي وهبت نفسها للرسول ﷺ، ورد أنه ﷺ طأطأ رأسه، وهو بمعنى **قوله:** فصمت، ثم عرضت نفسها عليه فصمت، فلقد رأيتها قائمة مليا تعرض نفسها عليه، وهو صامت.. فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست...

فكأنه صمت أولا لتفهم أنه لم يردها.... وفهمت من السكوت عدم الرغبة لكنها لما لم تيأس من الرد جلست تنتظر الفرج، وسكوته ﷺ إما حياء من مواجهتها بالرد، فلقد كان ﷺ شديد الحياء، كما تقدم في صفته أنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها، وإما انتظارا للوحي وإما تفكرا في جواب يناسب المقام)[٢]

١- سنن أبي داوود ٢ / ٢٢٠ رقم ٢٠٥١.

٢- فتح الباري ٩ / ٢٠٦.

فالصمت هنا أبلغ من الكلام لعدة أسباب:

أولها: أنه لم يعهد من رســـول الله أن ســـبق له الزواج من هذا الطريق، بأن تعرض امرأة نفســها عليه ثم يقبل، فهذا أمر جديد، وليس عند رسـول الله فيه توجيه من السماء، وهذا يستدعي الانتظار والتريث قبل الرد بالموافقة أو الرفض.

ثانيا: أن رسول الله لم يتزوج إلا لغاية دينية، ولا غاية هنا يراها.

ثالثا: أن التصريح بالرفض لا يتوافق مع حيائه ﷺ.

رابعا: أن التصــريح بالرفض لا يتوافق مع شــعور المرأة خاصـــة أمام جمع من الصحابة.

خامســـا: أن التصـــريح بالرفض قد يعيب المرأة فلا يتقدم أحد لخطبتها، لكن الصمت حفظ لها مكانتها حتى قام أحد الصحابة خاطبا لها وقد كان.

ويرى البعض أن سكوته دليل القبول، ليس قبولا للزواج منها، (وإنما قبولا لمبدأ الهبة وإلا لما ســكت رســول الله ﷺ؛ لأنه لا يقر على الباطل إذا أنه يحتمل أن يكون ســـكوته منتظرا بيانا، فنزلت الآية بالتحليل والتخيير، فاختار تركها وزوجها من غيره. ويحتمل أن يكون سكت ناظرا في ذلك حتى قام الرجل لها طالبا) [1]

****

ومن شــواهده أيضـــا ما رواه الحاكم (عن أم ســلمة رضي الله عنها قالت: كلمنني صـــواحبي أن أكلم رســول الله ﷺ أن يأمر الناس فيهدون له حيث كان، فإن

---

١ – راجع تفسير القرطبي ١٤ / ٢٠٩

الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ﵂ ، وإنا نحب الخير كما تحبه عائشة **فسكت رسول الله** ﷺ فلم يراجعني، فجاءني صواحبي فأخبرتهن بأنه ﷺ لم يكلمني، فقلن والله لا تدعيه، وما هذا حين تدعيه، قالت: فدار، فكلمته فقلت إن صواحبي قلن لي: أن أكلمك تأمر الناس فيهدون لك حيث كنت، **فقلت له:** مثل المقالة الأولى مرتين أو ثلاثا، **كل ذلك يسكت** عنها رسول الله ﷺ **ثم قال:** يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإني والله ما نزل الوحي علي وأنا في ثوب امرأة من عائشة، قالت، فقلت: أعوذ بالله أن أسوءك في عائشة)[1]

فسكوت النبي ﷺ في المرة الأولى والثانية دليل قاطع على رفضه فكرة مخاطبة الناس في شأن هداياهم، والسيدة أم سلمة فهمت ذلك، لكنها أعادت كلامها لإلحاح زوجات النبي عليها.

لكن السؤال: ما العلاقة بين نزول الوحي وهدايا الناس؟ ولماذا كان الرد هو: فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة؟

إن الذي ألمحه هنا أن الأمر متعلق برغبته ﷺ في قضاء حوائج الناس، فما دام الوحي لا ينزل إلا في بيت عائشة – ﵂ – فليأت الناس بهدايهم، ولا يخلو الأمر حين الهدية من سؤال، أو طلب حاجة في الدين، فليأت الناس بهداياهم، وليسعدوا بإجابة الوحي على ما يسألون عنه، وليس في الأمر حرمان للنساء من طعام الناس، فالطعام يوزع على الجميع، وبهذا نفهم أن رسول الله لم يوجه الناس، ولم يأمرهم أن يوزعوا هداياهم على جميع الأيام، وعند جميع النساء حتى يوافقا بهداياهم نزول الوحي، فيسألوا عن أمورهم في وجود الوحي، أو عند نزول الوحي فتكون الإجابة حاضرة.

١- هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤ /١٠

أما إذا قلت ولم ينزل الوحي في بيت عائشة وحدها، وفي ليلتها؟
فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن نماذج دلالة السكوت على الرفض ما رواه أبو هريرة في قصة ماعز، وإقامة الحد عليه، فلقد جاء في رواية **(فقال:** هل تدري ما الزنا؟ **قال:** نعم، أتيت منها حراما كما يأتي الرجل من امرأته حلالا، **قال:** فما تريد بهذا القول؟ **قال:** أريد أن تطهرني، فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم، فرجم، فسمع رجلين من الأنصار **يقول أحدهما لصاحبه:** انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم يدع نفسه حتى رجم رجم الكلب، قال: **فسكت رسول الله** ﷺ عنهما، ثم سار ساعة، فمر بجيفة حمار شائل برجله، **فقال:** أين فلان وفلان؟ **فقالا:** نحن ذا يا رسول الله، **فقال لهما:** كلا من جيفة هذا الحمار، **فقالا:** يا رسول الله، غفر الله لك، من يأكل من هذا؟!!! **فقال رسول** الله ﷺ: ما نلتما من عرض هذا الرجل آنفا أشد من أكل هذه الجيفة، فوالذي نفسي بيده إنه الآن في أنهار الجنة**)** [1].

لا شك أن الإنكار والرفض، وبيان فحش ما قالوه لن يبلغ درجة هذا المشهد الذي تجسد أمامهم في أمرهم بالأكل من الجيفة، وأي كلام يبلغ هذه الدرجة؟!!!

لقد سكت رسول الله ﷺ، ليس لأنه رافض فقط لكلامهم، ولكن لأن الكلام في هذا السياق لا يحمل المعنى الذي يريد ﷺ أن يوصله إليهم، لقد توارى اللفظ ساعة، حتى حانت الفرصة فاستثمرها في بيان قبح ما قالوه.

١- موارد الظمآن١ إلى زوائد ابن حبان للهيثمي ١ /٣٦٣

دلالة السكوت على الانتظار

هنـاك أمور كثيرة تحتـاج إلى فكر ورويـة، وإدراج الأمر على القلـب لاستفتائه، أو العقل لمراجعته، أو الوحي لاستشـارته، أو حتى انتظار الفرصـة ليكون الكلام أبلغ، وعندها يفضـل السـكوت، وفي كل ذلك لا ينفع التعجل بالكلام، ويظهر السـكوت عاليَ الصـوت ليبين للسـامع أن الأمر في حالة مراجعـة، لإخراج الأنسـب من الإجابات، ولا يعني السـكوت أبدا التردد، أو الاضطراب.

وفي الحديث الشـريف كثير من هذه النماذج، ومنها حديث أبي سـعيد الخدري: **قال:** قال رسـول الله ﷺ (إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض، **قيل:** وما بركات الأرض **قال:** زهرة الدنيا، **فقال** له رجل: هل يأتي الخير بالشـر؟ فصـمت النبي ﷺ، حتى ظننت أنه يُنزّل عليه، ثم جعل يمسـح عن جبينه. **فقال:** أين السـائل؟ **قال:** أنا، **قال أبو سـعيد:** لقد حمدناه حين طلع لذلك.

قال: لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضـرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا أو يلم، إلا آكلة الخضـر، اختلفا، حتى إذا امتدت خاصـرتاها، استقبلت الشـمس، فاجترت، وثلطت وبالت، ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حلوة، من أخذه بحقه ووضـعه في حقه فنعم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان ليث يأكل ولا يشبع)[1]

١- صحيح البخاري ٥ / ٢٣٦٢ ٤٠ – تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١١٦

فالسكوت هنا يشعرك بأن السؤال كان نتيجة أصول معتبرة أقرها الإسلام، وخالف بعضها بعضا، وأراد الصحابي الجليل أن يستبين الأمر، فالإسلام يقر بأن المال خير، **قال تعالى:**

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [سورة العاديات:٨]

ثم يأتي هذا الحديث ليقول: إن هذا الخير الذي يبسط للناس مصدر خوف وقلق من رسول الله على أمته، وهنا يطرأ السؤال، وهل الخير يستجلب الشر؟

وهو سؤال معتبر، واستدعى السكوت حتى يتبين الأمر من الوحي، أو من القلب، أو حتى من العقل، وهنا تدخل الوحي ليحسم الأمر، وليزيل الإبهام، فالخير لا يأتي إلا بالخير، لكن الشر يكمن في التعامل مع هذا الخير، وتوجيهه حيث يحب الله تعالى، فالمال – من حيث هو زهرة الدنيا ونعيمها – خير كبير، ولكن حين يرمي به في مصرف السوء يتحول هذا الخير إلى وبال على صاحبه.

وهب أنك تتحدث عن الصلاة أو الصيام، فكلاهما من حيث أنهما فريضتان خير كبير، ولكن حين تلهيك النوافل عن اكتساب قوت يومك، أو الإنفاق على عيالك فتعرضهم للضياع يتحول الأمر إلى شر، وهذا ما أراد الحديث أن يجليه للصحابة، فبدأ بالسكوت ليستقر السؤال في عقول الجميع، ويبحث كل منهم في مدركاته عن إجابة، فلا يجد، ويظنون أن الأمر فيه حرج لرسول الله ﷺ حتى (أنهم لامو الرجل، حيث رأوا سكوت النبي ﷺ، فظنوا أنه أغضبه، ثم حمدوه آخرا لما رأوا مسألته سببا لاستفادة ما قاله النبي ﷺ، فالمال ولو كثر فهو من جملة الخير وإنما يعرض له الشر بعارض البخل به

عمن يستحقه، والإسراف في إنفاقه فيما لم يشرع وأن كل شيء قضى الله أن يكون خيرا فلا يكون شرا، وبالعكس، ولكن يخشى على من رُزق الخير أن يعرض له في تصرفه فيه ما يجلب له الشر.

كأن يدعوهم المال إلى الطغيان، والظلم، ولذلك علق ابن كثير **على قوله تعالى:** ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ [سورة الشورى:٢٧]

فقال: أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرا وبطرا)[1] لذلك جاءت رواية تقول عن المال: "أَوَ خير هو؟".

ثلاث مرات وهو استفهام إنكاري، أي: إن المال ليس خيرا حقيقا، وإن سمي خيرا، لأن الخير الحقيقي هو ما يعرض له من الإنفاق في الحق، كما أن الشر الحقيقي فيه ما يعرض له من الإمساك عن الحق، والإخراج في الباطل)[2]

وهذا وجه آخر لتفسير السكوت، وكأن السكوت كان تعجبا من النظر إلى المال على أنه خير وهو في الحقيقة شر، وإنما يعرض الخير له إن أنفق في الحق.

****

ومن نماذج دلالة السكوت على الانتظار، دون أن يراد القبول أو الرفض ما جاء في قصة استئذان سيدنا عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ حين أشيع أنه طلق زوجاته، وكان الغلام يستأذن لعمر، وكان رسول **الله يسكت.**

١- ابن كثير ٤ /١١٦

٢- فتح الباري ١١/ ٢٤٦

فالسكوت هنا ليس رفضا للدخول، وإنما هناك شاغل صرف النفس عن استقبال الفاروق **يقول ابن حجر**:(وفيه أن السكوت قد يكون أبلغ من الكلام، وأفضل في بعض الأحايين لأنه عليه الصلاة والسلام لو أمر غلامه برد عمر لم يجز لعمر العود إلى الاستئذان مرة بعد أخرى، فلما سكت فهم عمر من ذلك أنه لم يؤثر رده مطلقا)[1] بل وأعاد الاستئذان حتى سمح له بالدخول.

وفي مقام آخر يكون السكوت انتظارا لتنفيذ شيء أمر به رسول الله، كما في قصة عبد الله بن أبي السرح، وكان كاتبا للوحي، ولما نزلت الآية التي في **سورة المؤمنون:**

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [سورة المؤمنون:١٢]

دعاه النبي ﷺ فأملاها عليه فلما انتهى إلى **قوله** " ثم أنشأناه خلقا آخر " عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان **فقال:** ﴿...فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [سورة المؤمنون:١٤] **فقال رسول الله** ﷺ: هكذا أنزلت عليّ، فشك عبد الله حينئذ، **وقال،** لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلي كما أوحي إليه، ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال، فارتد عن الإسلام، ولحق بالمشركين، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة أمر بقتله، وقتل عبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، ففر عبد الله بن أبي سرح إلى عثمان رضي الله عنه وكان أخاه من الرضاعة، أرضعت أمه عثمان، فغيبه عثمان حتى أتى رسول الله ﷺ بعدما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له، **فصمت رسول الله**ﷺ طويلا، ثم **قال:** نعم، فلما انصرف عثمان، **قال** رسول الله ﷺ: **ما صَمَتُّ** إلا ليقوم

١- فتح الباري ٩ / ٢٩٢

إليه بعضكم فيضرب عنقه، **فقال رجل من الأنصار:** فهلا أومأت إليّ يا رسول الله فقال: إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين)[1] وهذا مقام لا يصـــلح فيه كلام ألبتة، ولو راجعت الموقف، لا تجد ألفاظا تصـــلح له، فقط السـكوت، والســكوت وحده، هو الذي يســتطيع أن يحمل تلك المعاني المتداخلة، فهناك رجل ثلم في الإســـلام ثلمة، كادت تطيح بقواعده، وكان موقعه من رســـول الله موقعا قريبا، فلقد كان من كتاب الوحي، ثم ارتد عن الإســـلام، وهذا ترك أثرا بالغا في قلوب الناس، ثم هاهو قد جاء يطلب الأمان، وجاء معه عثمان بن عفان، والرواية لم تقل إنه جاء مسلما أو تائبا، إنما جاء طالبا الأمان ممن بُعث رحمة للعالمين، فالرجل ما زال على كفره، فهل ترى للألفاظ هنا موضـــعا؟ ولو أنك درت بخيالك، لتبحث عن كلام فلن تجد، فماذا يقال هنا؟

إنك لن تجد غير الصـــمت، والعجيب أن الصـــحابة توقفوا عند هذا الصـــمت، ولم يفهموا منه إلا التريث، والانتظار حتى يصـــدر أمر آخر، لأن الأمر الأول بالقتل ينقضه واقع مشاهد أمام أعينهم يرون فيه الرجل جالسا أمام رسـول الله، ومعه عثمان بن عفان، وظن القوم أنه لو أراد رسـول الله قتله لأومأ بعينه، وحاشـاه أن تكون له خائنة الأعين، ومضـى الموقف **يحوطه الصـمت**، فرســول الله ينتظر من الصــحابة تنفيذ الأمر الذي صــدر ســابقا، والصــحابة ينتظرون إشـارة لأن الرجل بين يدي رسـول الله، فلما طال الانتظار، لم يكن بد من إعطاء الأمان للرجل، وإنفاذ إجارة سيدنا عثمان بن عفان، وقد كان.

وجاء في رواية أن عبد الله بن أبي الســـرح جاء مبايعا، ومد يده ثلاث مرات ورســـول الله لا يبايعه، وينتظر من الصـــحابة قتله، حتى **قال الخطابي:**

١- تفسير القرطبي ٧ / ٤٠

(وفيه أن التوبة عن الكفر في حياتهﷺ كانت موقوفة على رضـاه ﷺ، وأن الذي ارتد وأذاه ﷺ إذا أمن سقط قتله)[1] .

والصـــحابة لم يجربوا موقفا مثل ذلك من قبل، ولم يعرفوا المقصـــود من سـكوت النبي عنه، هل هو غضـــب، هل هو عتاب؟ هل هو رفض للمبايعة؟ أمور كثيرة، وما عليهم إلا الانتظار وهنا (أقبلﷺ على أصـــحابه فقال أما رجل يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله قالوا ما درينا يا رسول الله ما في نفسـك، فهلا أومأت إلينا بعينك؟ فقال إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة عين) [2]

****

---

١ – عون المعبود ٧ /٢٤٨

٢– شرح معاني الآثار لأحمد بن محمد الطحاوي دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٩ هـ ٣ / ٣٣٠

دلالة السكوت على الحزن

الحزن عامل قوي في امتناع الإنسان عن الكلام، لكنه حين يمتزج بالغضب ينطلق اللسان من محبسه، فيذهب يمينا وشمالا، إلا من رحم الله، ورُزق الحلم والأناة، فيمسك لسانه، ولقد علّم رسول الله صحابته ذلك بطريقة عملية حين سألته زوجاته النفقة، ولنستعرض هنا الحديث، ليتبين لنا قدرة النبي -ﷺ-، على كتمان حزنه، (**فعن جابر قال:** جاء أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسا على بابه لم يؤذن لأحد منهم، **قال:** فأذن لأبي بكر – رضي الله عنه – فدخل، ثم أقبل عمر – رضي الله عنه – فاستأذن، فأذن له، فدخل، فوجد النبي ﷺ جالسا حوله نساؤه ... واجم ساكت، **قال:** فقال عمر رضي الله عنه : " لأقولن شيئا أضحك النبي ﷺ **فقال يا رسول الله:** لو رأيت ابنة خارجة سألتني النفقة، فقمت إليها فوجأت عنقها، **قال:** فضحك رسول الله ﷺ، وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة..... إلخ) [1]

وهذا السكوت المفعم بالحزن فهم منه أبو بكر وعمر، غضب رسول الله من زوجاته، واحتياجه إلى ما يخرجه من هذا المقام، فما كان من سيدنا عمر إلا أنه قام بإضحاكه، وإنهاء هذا الموقف بالتشديد على ابنته، وكذا فعل أبو بكر رضي الله عنهما، وهذا الموقف لا يصلح معه كلام، فما الذي يمكن أن يقوله رسول الله لزوجاته ليعبر عن حزنه؟

١– سنن البيهقي ٣٧/٣

هل يقول إنني اخترت الآخرة على الدنيا؟ هل يقول إنه لا يليق بابنة الصديق وابنة الفاروق وسائر زوجات الرسول أن ينظرن إلى متاع الدنيا كما تنظر سائر النساء؟ هل يقول إنه ليس عندي ما أوسع به عليكن، ولا حيلة لي في ذلك؟ هل يلوح في الأفق شبح الطلاق؟

كل هذه الأسئلة وغيرها تدور في الذهن، ولا يحمل معالمها إلا السكوت؛ لذلك أوثر على الكلام هنا، حتى أضحكه سيدنا عمر، ولو أنك ترجمت هذا السكوت إلى عبارات، لضاق عنها السياق والمقام.

دلالة السكوت على الغضب

قد يعجب المرء حين يرى غضـــباً يدل عليه بالســـكوت، فالمعروف في عالم البشـر أن الغضـب يفرج عنه بالصـوت العالي، وبالصـراخ، وبالكلام الكثير، فالكلام يفتح الباب للتفريج عن النفس، بسـبب ما ألم بها، ولقد كان من وصايا الرسول ﷺ لصحابته أنه إذا غضب أحدهم فليسكت. لماذا؟

لأن الغضـب يجعل الإنسـان في الغالب لا يعرف ماذا يقول، وقد يخرج منه ما يندم عليه حياته كلها، لذا أمر بالســكوت عند الغضـــب، وكان قدوة في ذلك، **وإليك هذا المثال:** (عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر جيء بالأسارى، وفيهم العباس فقال رســول الله ﷺ: مـا ترون في هؤلاء الأســـارى؟ **فقال أبو بكر:** يا رسـول الله، قومك، وأهلك استبقهم، لعل الله أن يتوب عليهم، **وقال عمر:** كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، قدمهم واضرب أعناقهم، **وقال** عبد الله بن رواحة: انظر وادياً كثير الحطب، فأضــرمه عليهم، فقال العباس – وهو يسـمع: قطعت رحمك، قال: فدخل رسـول الله ﷺ ولم يرد عليهم شـيئا، **فقـال أنـاس:** يـأخـذ بقول أبي بكر رضي الله عنه، **وقـال** أنـاس يـأخـذ بقول عمر، **وقال أناس:** يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج رسـول الله ﷺ **فقال:** إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، ويشـدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، **قال:** "فمن تبعني فإنه مني ومن عصـاني فإنك غفور رحيم"، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسـى، **إذ قال:** "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، " ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، إذ **قـال:** " رب لا تـذر على الأرض من الكـافرين ديـارا"، ومثلـك يا عمر مثل موسى عليه السلام، إذ قال" ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم

فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم " أنتم عالة، فلا ينفلتن أحد إلا بفداء، أو حصول عنق، فقال عبد الله: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، قال: فما رأيتني أخوف أن تقع علي الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم) [1]

ولا شك أن هذا افتئات على رسول الله بعد المشورة واتخاذ القرار، وكان جواب رسول الله على ذلك هو السكوت، وفيه من الضيق ما فيه، فالمقام يشتعل بالمشاعر المتناقضة، فهؤلاء كما قال أبو بكر رضي الله عنه - هم الأهل والعشيرة، وهم في الوقت ذاته كفار مشركون، حاربوا الله ورسوله، ولا يمكن لبشر أن ينزع من قلبه، الميل إلى الأهل والعشيرة حتى في أثناء القتال، فلا يزال لهم في القلب مكان، ليس موازيا و ولا مقاربا للولاء لدين الله، ولكنه من باب " رب إن ابني من أهلي".

وفي خضم هذه المشاعر يبرز هذا الصحابي، ليقاطع مشورة رسول الله، والتي انتهت إلى اتخاذ قرار بالفداء، ليستثني واحدا لقطع رقبته، وهو سهيل بن بيضاء، فماذا يكون الجواب إلا السكوت، وكظم الغيظ، حتى قال الصحابي (فما رأيتني أخوف أن تقع على الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم)، ولم لا، وقد حاول أن يتدخل في أمر لا يعنيه، وأقيمت فيه مشورة، واتُخذ القرار، ونزل القرآن ليقر هذا القرار مع أنه في نظر السماء خطأ، لكنه أُقرّ لحصول المشورة عليه.

****

ومن مواضع دلالة السكوت على الغضب ما رواه ابن عباس، **قال:** بينا رسول الله - ﷺ- يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن

١- القرطبي ٨ / ٤٧

عبد المطلب، وكان يتصـــدى لهم كثيرا ويحرص عليهم أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له: عبد الله بن أم مكتوم، يمشـــي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يســتقرئ النبي ﷺ آية من القرآن، **وقال يا رســول** الله: علمني مما علمك الله **فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه،** وتولى وكره كلامه، وأقبل على الآخرين، فلما قضـــى رســول الله ﷺ، وأخذ ينقلب إلى أهله أمســك الله بعض بصره، **ثم خفق برأسه ثم أنزل الله** :﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة عبس١ :٤]

فلما نزل فيه أكرمه رســـول الله ﷺ، وكلمه وقال له: ما حاجتك؟ هل تريد من شـيء؟ وإذا ذهب من عنده قال له: هل لك حاجة في شـيء؟ وذلك لما أنزل الله "(أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى) [١]

ولعل القارئ يلحظ هنا أن العبوس والإعراض كليهما لا يرى بالعين للأعمى، فالإعراض هنا سكوت صاحبه حركة بالجسد تجاه رجل لا يراها، لكن الحق سبحانه وتعالى أثبتها، وأعلنها، والذي يعنيني هنا هو: ما لذي أراد رسول الله أن يقوله بسكوته وإعراضـه لعبد الله بن أم مكتوم؟ وتعال لنقف على القصـة، ونعيش في أجوائها بإيجاز، لندرك هذه الرســائل التي أراد الحبيب إيصــالها من خلال سكوته، يقول الشـيخ سيد قطب – رحمه الله –: (ويجيء الرجل الأعمى الفقير ابن أم مكتوم إلى رســول الله ﷺ– وهو مشــغول بأمر النفر من ســادة قريش، عتبة وشـيبة ابني ربيعة، وأبي جهل عمرو بن هشـام، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، ومعهم العباس بن عبد المطلب، والرسول ﷺ يدعوهم إلى

١– تفسير الطبري ٣٠ / ٥١، وتفسير ابن كثير ٤ /٤٧١

الإسلام; ويرجو بإسلامهم خيرا للإسلام في عسرته وشدته التي كان فيها بمكة; وهؤلاء النفر يقفون في طريقه بمالهم وجاههم وقوتهم ; ويصـــــدون الناس عنه ويكيدون له كيدا شـــــديدا حتى ليجمدوه في مكة تجميدا ظاهرا، بينما يقف الآخرون خارج مكة لا يقبلون على الدعوة التي يقف لها أقرب الناس إلى صاحبها وأشدهم عصبية له في بيئة جاهلية قبلية تجعل لموقف القبيلة كل قيمة وكل اعتبار، يجيء هذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله ﷺ وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر، لا لنفسه ولا لمصلحته، ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام، فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة; ولا نساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار، يجيء هذا الرجل فيقول لرسول الله ﷺ، يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، ويكرر هذا، وهو يعلم تشاغل الرسول ﷺ بما هو فيه من الأمر، فيكره الرسول قطعه لكلامه، واهتمامه، وتظهر الكراهية في وجهه الذي لا يراه الرجل، فيعبس ويعرض، يعرض عن الرجل المفرد الفقير الذي يعطله عن الأمر الخطير الأمر الذي يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشـيء الكثير ; والذي تدفعه إليه رغبته في نصرة دينه وإخلاصه لأمر دعوته وحبه لمصلحة الإسلام وحرصه على انتشاره، وهنا تتدخل السماء، تتدخل لتقول كلمة الفصل في هذا الأمر ; ولتضـع معالم الطريق كلـه، ولتقرر الميزان الـذي توزن فيـه القيم بغض النظر عن جميع الملابسات والاعتبارات بما في ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر، بل كما يراها سيد البشر ﷺ وهنا يجيء العتاب من الله العلي الأعلى لنبيه الكريم صـاحب الخلق العظيم في أسـلوب عنيف شـديد، وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب "كلا" وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب)[1]وبعد هذا

١- في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٥٤

نرجع إلى السـؤال: ما لذي أراد رسـول الله أن يوصـله بإعراضـه إلى ابن أم مكتوم، وغيره؟

لقد أراد أن يوصل عدة معان، منها:

أن مراعاة المقام أمر مهم بين المتعلم وأسـتاذه، وهذا لموقف لم يكن المقام يسـمح بعلم أو تعليم، فالمكان في عرض الطريق، وليس في المسـجد، والزمان ليس زمان تعليم، فالمعروف أنه -ﷺ- كان يتعهدهم بالتعليم والإقراء عقب الصـلوات، والحضـور الذين يقف معهم هم رؤسـاء مكة، وهذا كله لا يتناسب مع سؤال ابن مكتوم فكان السكوت عن الإجابة، والإعراض رسالة مفادها: ليس الآن وقت تعليم، وإقراء.

ورسالة أخرى تراها في سكوته وإعراضه ﷺ، وهي تأليف قلوب هؤلاء بزيادة الاهتمام بهم حين يرونه قد أقبل عليهم، وتولى عن غيرهم، وهذه تعمل في النفوس عملها، وبخاصة النفوس المعاندة، العاصية.

ورسالة ثالثة لكل داعية يدعو إلى الله على بصيرة، أن يولي أصحاب الرياسات مزيد اهتمام، لأن في إسلامهم إسلاما لأتباعهم وأشياعهم.

تلك بعض الدلالات التي حملها سكوته، وإعراضه ﷺ.

****

ومن دلالة السكوت على الغضب أيضا ما رواه أبو سعيد الخدري أن رجلا قدم من نجران إلى رسـول الله ﷺ وعليه خاتم من ذهب، **فأعرض عنه رسول الله** ﷺ، ولم يسأله عن شيء، فرجع الرجل إلى امرأته فحدثها، فقالت: إن لك شأنا، فارجع إلى رسول الله ﷺ، وألق الخاتم، فلما استأذن له، وسلم

على رســول الله ﷺ، فرد عليه السلام، **فقال يا رســول الله:** أعرضــت عني، **فقال** رســـــول الله ﷺ: إنك جئتني وفي يدك جمرة من نار، **فقال** يا رســـــول الله لقد جئت إذا بجمر كثير، وكان قد قدم علينا من البحرين، **فقال النبي**ﷺ: ما جئت شيئا إلا ما حجارة الحرة ولكنه متاع الحياة الدنيا، **فقال الرجل:** اعذرني في أصــحابك، لا يظنون أنك ســخطت عليّ بشــيء، **فقام رســول الله** ﷺ وعذره وأخبر أن الذي كان منه إنما كان لخاتمه)[1]

وهذا الحوار الذي دار بين رســـــول الله، وبين الرجل ينطق بعدة دلالات تتخذ من الســـــكوت والإعراض مرتكزا، فالبداية تحكي قدوم وفد من نجران إلى رسول الله، والمعلوم سلفا أن الوفود حين تأتي مسلمه تستقبل بالترحاب، والسؤال عن الذين لم يحضروا، ثم تزود بالقرآن، والعلوم الأساسية، كالعبادات، والحلال والحرام... إلخ

لكن هذا الرجل – مع أنه ذو شـــأن فوجئ بإعراض الرســـول عنه، وعدم رد السلام عليه، وهذا السكوت والإعراض، فهم منه الرجل أن رسول الله ساخط عليه.

فدلالة السـخط لم تنشـأ من كلام، وإنما نشـأت من السـكوت والإعراض، ولعل هذه الدلالـة لها ما يؤيدها في القرآن الكريم، وذلك في بيان القرآن عن المرأة الناشــز، ووســـائل علاج هذا النشـــوز، الذي يبدأ بالعظة، ثم بالإعراض والهجر في المضجع، فكأن الإعراض عنها وسيلة من وسائل البيان عن السخط والغضـــب، ولقد اســـتعمل رســـول الله هذه الوســـيلة البيانية مع زوجاته، حين اعتزلهن شـــهرا، وتؤكد الروايات أنه ما كلم واحدة منهن في هذه المدة، مما يدل على أن السكوت والإعراض ينطق في بعض السياقات بالغضب.

١- موارد الظمآن ١ / ٣٥٤

ترك الجدال بالسكوت

حين ترى الكلام لا يجدي نفعا، وأن من أمامك لا يريد إلا المجادلة، حينها ترى السكوت أهدى وأقوم قيلا، فهناك أسئلة لا تنفع معها إجابة، وبخاصة حين ترى من أمامك يسألك لا ليفهم وإنما ليعارضك ويجادلك، ويشغب عليك، ومن نماذج ذلك ما رواه سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال (اجتمعت قريش يوما فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه فقالوا: ما نعلم إلا عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة، فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ **فسكت رسول الله** صلى الله عليه وسلم.

فقال أنت خير أم عبد المطلب؟ **فسكت رسول الله** صلى الله عليه وسلم.

فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم أن في قريش ساحرا، وأن في قريش كاهنا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى: أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى. أيها الرجل: إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا، وإن كان بك الباءة، فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فرغت؟ قال نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(**بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم**)** فصلت، حتى بلغ "فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود". فقال عتبة: حسبك حسبك، ما

هذا؟ فقال رســـول الله ﷺ: لا. فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك قال نعم: لا.

والذي نصـبها بنية ما فهمت شـيئا إلا أنه أنذركم صـاعقة مثل صـاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك، يكلمك الرجل بالعربية، لا تدري ما قال؟ !! قال: لا والله ما فهمت شيئا مما ذكر الصاعقة)[1] انظر متى سكت رسول الله؟ ومتى تكلم؟ تعلم أن الســكوت كان وقت لا ينفع الكلام، حيث أريد منه الإجابة على أســـئلة إجابتها معروفة لعامة المســـلمين، فهو والله خير من عبد المطلب، وهو والله خير من عبد الله أبيه، وهو والله خير الناس كلهم، لكن هذه الإجابة في عرف أهل الجاهلية معرة، وسُبة لمن يدعيها، فلقد تعارف أهل الجاهلية على الفخر بالأحساب، والتعالي بالأنساب، فالناس كانوا يعيبون على حسان بن ثابت أنه افتخر بمن ولد، ولم يفخر بالآباء والأجداد، ففي الجبلة العربية الفخر، والعز كله للآباء، وكان من حكمة رســول الله ﷺ أن ســكت عن الإجابة عن هذه الأســـئلة، ولو قال لعتبة إنه خير من عبد الله، ومن عبد المطلب لجن جنونه، ولقام في العرب صارخا إن محمدا يزعم أنه خير من أبيه وجده، وتلك معرة عند العرب لا يمحوها شـــيء، لذلك ترى الســـكوت لا بلاغة فوقه في هذا المقام، ولا بيان يرقى رقيه فيه، لكن باقي كلامه بأنه ســـاحر أو كاهن، أو في حاجة إلى النســـاء أو المال أو هذه المزاعم، فكان الرد عليها بأول ســـورة فصـــلت، وفي هذه السورة تحديد لطبيعته ورسالته حيث قيل:

١- وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده ١٨١٨ وانظر ابن كثير في التفسير ٤ / ٩١

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ﴾ [سورة فُصِّلَت:٦]

وهكذا ترى السـكوت أبلغ من الكلام في مقامه، وترى الكلام أبلغ من السكوت في مقامه.

****

دلالة السكوت على الإباحة

الأحكام الفقهية تستنبط في العادة من أدلة منطوقة من القرآن أو السنة أو الإجماع أو القياس، لكن في بعض الأحوال ترى للسكوت دلالة يؤخذ منها الحكم الفقهي ومن ذلك الحكم بالإباحة عند السكوت، ودليل ذلك ما رواه أبو ثعلبة الخشنى **قال:** قال رسول الله ﷺ: (" إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم حرمات فلا تنتهكوها، وحدد حدودا فلا تعتدوها، **وسكت** عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها").

لقد فهم العلماء من هذا السكوت العفو، والصفح، وزاد ابن كثير أن السكوت هنا يفيد الأمر، **يقول:** (أي ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه فاسكتوا أنتم عنه كما سكت عنه) [1]

وهذه دلالة قد لا تخطر على بال ناظر، ولكنها موجودة في طيات السياق، فالسياق في شأن تفصيل الحلال والحرام، ووضع الفرائض، والحدود، وفي مثل هذا السياق، وما دام الذي يضع ذلك هو ربنا سبحانه وتعالى، وهو الذي لا ينسى ولا يغفل، ثم يسكت عن أشياء دون توضيح الحكم فيها، فكأنه يأمرك أن تسكت عما سكت عنه، وهذا ما أكده النهي الذي جاء عقب السكوت حيث قيل فلا تسألوا عنها " واجتماع الأمر والنهي على معنى واحد دليل على الإبلاغ في توكيدها، ودفع الشبه التي قد تثور حولها، وكأنما **قال:** لا تسألوا عن المسكوت عنه، لا تسألوا عن المسكوت عنه – هكذا بالتكرار – وزاد القرطبي ففسر السكوت بالعفو **فقال:** (والكلام على هذا التقدير فيه

١- تفسير ابن كثير ٢ / ١٠٧

تقديم وتأخير، أي " لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها إن تبد لكم تسؤكم، **أي:** أمسك عن ذكرها، فلم يوجب فيها حكما) [1]

كما أن الاحتراس الموجود في قوله "غير نسيان" يفيد أن السكوت قد يفهم منه النسيان في مقام التشريع، لكن حين يخرج التشريع ممن لا ينسى، فلا مجال للنسيان هنا إنما الأمر كما جاء في رواية أخرى (ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فان الله لم يكن ينسى شيئا) [2]

١- تفسير القرطبي ٦ / ٣٣٤

٢- فتح الباري ١٣ / ٢٦٦

دلالة السكوت على عدم العلم

من دســاتير الإســلام الشــاملة لكثير من أمور الحياة ما جاء في ســورة **الإسراء :**

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ... ﴾ [سورة الإسراء:٣٦]

يقول ابن عباس: (لا تشــهد إلا بما رأت عيناك، وســمعته أذناك، ووعاه قلبك، **وقال أبو قتادة:** لا تقل ســمعت ولم تســمع، ولا رأيت ولم تر، ولا علمت ولم تعلم، والمراد من كل ذلك: النهي عن القول بلا علم)[1]

وحين تغيب المعلومة، فلا ســبيل إلى الكلام، بل الســكوت هو خير من يعبر عن عدم العلم، وبخاصــة في القضــايا التي لم ينزل بها الوحي، أو يشـتبك فيها الأمر فلا يدري وجه الإجابة، **ومن ذلك:** (أن رجلا جاء إلى للنبي ﷺ **فقال:** يا رســول الله إني أتصــدق وأصــل الرحم، ولا أصــنع ذلك إلا لله تعالى، فيُذكر ذلك مني وأحمد عليه، فيسـرني ذلك وأعجب به **فسكت** رسـول الله ﷺ ولم يقل شيئا، **فأنزل الله تعالى:**

﴿ ... فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

[سورة الكهف:١١٠] ٢

والســــكوت هنا كأني ألمح منه حيرة الرجل في الأمر، فهو يريد وجه الله تعالى في أعماله حيث **قال:** " لا أصــنع ذلك إلا لله "، لكن المشـكلة طرأت من

١- تفسير المراغي ٤ / ٣٢

٢- تفسير القرطبي ٧٠/١١

سـروره وإعجابه من ذكر الناس له، ولله در هذا الصـحابي، ومن الذي لا يسـر من ذلك؟!!!!!

من الذي لا يهش ولا يبش حين يُرى على الطاعة؟!!!

وبخاصـــــة في أعمال لا يمكن ســـــترها مثل صـــــلة الرحم، وكثير من الصدقات؟

وعلى ذلك: كيف نفسر سكوت النبي – ﷺ –؟

هل كان غضبا من سرور الرجل بطاعاته؟

أم كان إقرارا له، ورفعا للحرج عنه؟

أم أن الأمر محير يحتاج إلى أن يرد إلى العليم بخبايا النفوس، وطوايا الضمائر؟

إن الذي أراه هو هذا الأخير، ولو كان الأمر واضحا من البداية لما كان هناك سكوت.

فالســكوت في هذا المقام يشــير إلى أن قضــية النية وما يحيط بها من خيوط لا يمكن لبشـر أن يحكم فيها، فالأمر هنا مرده إلى الله تعالى، ولهذا كان الجواب من السماء، ونزلت الآية لتجيب عن السؤال، **وقيل:**

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾

[سورة الكهف:١١٠]

والعجيب أن هذه الإجابة تحتمل قبول صـــنيع الرجل، وتحتمل أيضـــا رفضــه، وكأنها تقول للرجل، ومن كان على شـاكلته إن هذه الأمور لا يبت فيها

في الأرض، إنما يبت فيها عند من يعلم السر وأخفى، فالسرائر لا يتولاها بشر، حتى وإن كان رسولا من عند الله، لذا كان أبلغ رد على الرجل هو السكوت.

ولقد أفرد الإمام الصنعاني مساحة واسعة لأنواع الرياء، وأقسامه، والمقبول من الأعمال، والمردود، ونسبة الأجر....... إلى آخر ذلك. [١]

وهذا أمر أراه دقيقا، لأنه يتعلق بخبايا الضمائر، ولا يعلم خفاياها إلا الله تعالى، فهو الذي يصـــلح الأعمال، وهو الذي يتقبلها، وهو وحده الخبير بما يعمل العاملون، وهو وحده الذي يرفع قدر العمل بلحظة إخلاص وتضـــرع،

١- يقول الصـــنعاني (والرياء باب واســـع إذا عرفت ذلك فبعض أبواب الرياء أعظم من بعض لاختلافه باختلاف أركانه وهي ثلاثة : المراء لأجله، ونفس قصـد الرياء فقصـد الرياء لا يخلو من أن يكون مجردا عن قصـد الثواب أو مصـحوبا بإرادته والمصـحوب بإرادة الثواب لا يخلو عن أن تكون إرادة الثواب أرجح أو أضـعف أو مساوية فكانت أربع صـور الأولى أن لا يكون قصد الثواب بل فعل الصـلاة مثلا ليراه غيره وإذا انفرد لا يفعلها وأخرج الصـــدقة لئلا يقال إنه بخيل وهذا أغلظ أنواع الرياء وأخبثها وهو عبادة للعباد الثانية قصـد الثواب لكن قصدا ضـعيفا بحيث إنه لا يحمله على الفعل إلا مراءاة العباد ولكنه قصـد الثواب فهذا ليث قبله الثالثة تسـاوي القصـــدان بحيث لم يبعثه على الفعل إلا مجموعهما ولو خلى عن كل واحد منهما لم يفعله فهذا تسـاوي صـلاح قصـده وفسـاده فلعله يخرج رأسـا برأس لا له ولا عليه الرابعة أن يكون إطلاع الناس مرجحا أو مقويا لنشـاطه ولو لم يكن لما ترك العبادة قال الغزالي والذي نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط أصـل الثواب ولكنه ينقص ويعاقب على مقدار قصـد الرياء ويثاب على مقدار قصـد الثواب وحديث أنا أغنى الأغنياء عن الشرك محمول على ما إذا تساوى القصدان أو أن قصد الرياء أرجح ..وأما إذا قارن باعث الرياء باعث العبادة ثم ندم في أثناء العبادة فأوجب البعض الاسـتئناف لعدم انعقادها، وقال بعضـــهم يلغو جميع مـا فعلـه إلا التحريم وقـال بعض يصـــح لأن النظر إلى الخواتم كمـا لو ابتدأ بالإخلاص وصحبه الرياء من بعده قال الغزالي والقولان الآخران خارجان عن قياس الفقه.

ويتأول الحديث الأول بأن المراد بقوله إذا يتحقق عليه ســـرني لمحبته للثناء عليه فيكون الرياء في محبته للثناء على العمل وإن لم يخرج العمل عن كونه خالصـــا وحديث أبي هريرة ليس فيه تعرض لمحبة الثناء من المطلع عليه وإنما هو مجرد محبة لما يصـــدر عنه وعلم به غيره ويحتمل أن يراد بقوله فيعجبه أي يعجبه شـهادة الناس له ومعناه الصـالح لقوله صـلى الله عليه وآله وسـلم أنتم شـهداء الله في الأرض وقال الغزالي أما مجرد الســرور باطلاع الناس إذا لم يبلغ أمره بحيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسـد العبادة) سبل السلام٤/ ١٨٦

أو يحبطه بلحظة استكبار ورياء، ولا يسعنا هنا في هذه الدائرة إلا ما فعله رسول الله ﷺ، وهو السكوت، فكان أعظم بيان من أفصح الناس.

****

ومن مواضع دلالة السكوت على عدم العلم ما رواه سيدنا جابربن عبد الله **قال:** (أتى النبيﷺ رجل من زفر يقال له بستانة اليهودي، **فقال له:** يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ما أسماؤها؟ **قال:** فسكت رسول الله ﷺ، فلم يجبه بشيء، ونزل عليه جبرئيل وأخبره بأسمائها، قال فبعث رسول الله ﷺ إليه، فقال: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ **قال:** نعم **فقال:** جربان، والطارق، والذيال، وذو الكتفين، وقابس، ووثاب، وعمودان، والفليق، والمصبح، والضروح، وذو الفرغ، والضياء، والنور، فقال اليهودي: والله إنها لأسماؤها) [1]

وتلمح في هذا السكوت كأنه دعاء لله رب العالمين، وما أعظم أن يشعر العبد بحاجته إلى الله تعالى، فيأتيه المدد في اللحظة الحاسمة، لذلك جاء في الحديث بعد أن **قيل:** " فسكت " **قيل:** " ونزل عليه جبريل " أليس معنى ذلك أن السكوت هنا دعاء وتضرع إلى الله؟

إن الأمر لا علم لرسول الله به، فما عساه يجيب، والرجل يسأل عن أمر من أمور الغيب؟

ولو أنك استبدلت السكوت، ووضعت بدلا منه **مثلاً:** لا أعلم، **أو:** انتظر أخبرك بعد حين، أو أي إجابة أخرى، لم حملت هذه الدلالات التي حملها

١- تفسير القرطبي ١٢ / ١٥١

السـكوت. ففي السـكوت توكيد على أنه بشـر يوحى إليه، فالله وحده الذي يعلم الغيب. وفي السكوت تضرع إلى الله حتى ينزل عليه من العلم ما يجيب به على اليهودي. وفي السـكوت تعليم لمن حوله أن من الحكمة السـكوت، وأن الإجابة بغير علم لا تنبغي لأحد. وفي السـكوت ثم الإجابة بعده دليل واضـح على أن الإجابة نزلت من السماء، ولذلك استثمر رسول الله هذا الأمر في دعوة الرجل إلى الإسـلام، فقال له: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسـمائها؟ كل ذلك تراه في السكوت، ولا يقوى عليه اللفظ، ولا يتسع المقام له.

دلالة السكوت على الحياء

لكل دين خلق يعرف به، وخلق الإسلام الحياء، وهذا الخلق لا يدل عليه إلا بالسكوت، ولقد كان رسول الله ﷺ يوصف بأنه أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان يعرف حياؤه من سكوته، وإمساكه عن الكلام، وبخاصة في سياق أمور النساء الخاصة، فلقد كانت المرأة تأتيه تسأله عن طهورها من حيضتها، فيقول خذي فرصة من مسك فتطهري بها، تقول: كيف أتطهر؟ - لاحظ هذا - إنها تسال عن الكيفية، وتلك أمور تستدعي ذكر شيء من جسدها، وهي أمور معروفة لكافة النساء، فيقول ﷺ: سبحان الله: تطهري، وفتقول: كيف؟ يقول سبحان الله تطهري، فتدرك السيدة عائشة مدى الحرج الذي أحاط بالموقف، وهي تعلم شدة حيائه ﷺ، فتقول: فجبذتها، وقلت لها: تتبعي بها أثر الدم.

ومن نماذج حيائه ﷺ وسكوته عند ذلك ما رواه أبو مسعود الأنصاري **قال:** (أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، **فقال** له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك؟ **قال:** فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: **قولوا:** اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم)[1] والسكوت هنا (يحتمل أن يكون حياء وتواضعا، إذ في ذلك الرفعة له، فأحب أن لو قالوا هم ذلك)[2] أو نزل من السماء

١- صحيح مسلم ١ / ٣٠٥

٢- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ١/ ٤٧٥

ما يوضح كيفية الصلاة عليه، لكن لما كان الأمر أمر عبادة وامتثال لما أوحى به الله تعالى في قوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب:٥٦]

كان لزاما أن يبين لهم كيف يقولون، فالسكوت أولا، دافعه الحياء، الذي قد يؤدي إلى الحرج حتى تمنى الصحابة أنهم لم يسألوه، والتعقيب بالكلام دافعه امتثال أمر الله وتبليغ الرسالة، فاجتمع في الأمر الواحد درسان، درس في الحياء ودرس في إبلاغ أوامر الله.

الفصل الثاني:
البيان بالإشارة

الفصل الثاني

البيـــــان بالإشـــــارة

تقديم:

لا يشـــك أحد في أن الأصـــل المعتمد في البيان عن المراد هو اللفظ، والبلاغة العربية ما قامت إلا علي الكلام، وآلة ذلك اللســـان؛ ولذا كان كل نبي مبلغاً رسـالة ربه – في المقام الأول – بلسـانه، ليتم البيان، ويكتمل الإفهام؛ فلا يكون عذر لمعتذر... يقول الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ...﴾

[سورة إبراهيم:٤]

فمـدار الأمر على البيـان والتبيين، وعلى الإفهـام والتفهيم، وكلمـا كـان اللسـان أبين كان أحمد، ولما كان سـيدنا موسـى عليه الصـلاة والسـلام ذا عقدة في لسانه فصار لا يكاد يبين عن مراد الله – سبحانه – **دعا ربه قائلاً:**

﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ ﴾ [سورة طه٢٧ :٢٨]

فكانت الإجابة من رب العالمين:

﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [سورة طه:٣٦]

وإذا كان اللفظ المنطوق قد حاز هذا القدر من الأهمية في البيان، فمما لا شـــك فيه أن هناك وســـائل بيانية أخرى يعمد إليها البلغاء، ولها من القدر

والأهمية ما يقارب قدر اللفظ، أو تساويه وذلك كالبيان بالإشارة، والبيان بالخط، وبالعقد، وبالحال.

والذي يُقلِّب في البيان العربي كله، نثره وشـــعره، يلحظ ذلك جيداً ، وعلى رأس هذا البيان حديث النبي - ﷺ -حيث يلحظ حرص الرواة علي نقل ألفاظه وإشاراته وأحواله.. تري الراوي مثلاً يقول: قال رسول الله - ﷺ - كذا - وأشار بإصبعيه، أو أشار إلي الأرض، أو وأشار إلي جهة كذا...... إلخ.

وهذه النصوص التي حرص الرواة على نقلها ليست من العبث، كما أنها ليســـت من النوافل في عالم البيان، بل إن لها دوراً فاعلاً في الدلالة، وبلاغتها قد لا تقل عن بلاغة الكلام، لذلك نقلها الرواة كما هي. ولأجل كل هذا:

يحاول هذا الفصل الكشف عن بلاغة الإشارة في اللغة وبخاصة في بيان النبي - ﷺ - وهل يمكن الاكتفاء بها في البيان أو أنها تحتاج إلى وقوف اللفظ بجوارها؟

وفي أي الأســـاليب تكثر؟ وفي أي الأغراض تبرز؟ وهل من الممكن اصطناع بلاغة للإشارة خاصة بها؟

هذا - وقد اختط الفصل لنفسه منهجاً ذا شقين:

الأول: منهج نظري نقدي يقف على الإشـارة عند علماء البلاغة وكيفية تناولهم لها.

والآخر: منهج تحليلي موجز يصطفي من حديث - النبي ﷺ - بعضاً منها

ليبين فيها قدرة الإشـارة على حمل المعاني البلاغية كالتشـبيه، والحذف، والتعريف، والطباق وغير ذلك.

ومن خلال المنهجين أحاول الخلوص إلى هذه الدلالة – دلالة الإشارة – وأثرها في البلاغة العربية. ويشتمل هذا الفصل على مبحثين تسبقهما مقدمة وتمهيد، **وتبعهما خاتمة:** وتلك المقدمة هي التي انتهيت الآن من قراءتها، أما التمهيد ففيه لمحة عن مفهوم الإشارة.

ثم يأتي المبحثان:

الأول: الإشارة في تراث العلماء، وأتناول فيه دلالة الإشارة عند الجاحظ، وقدامة بن جعفر، وابن رشيق، وأبي هلال، وابن حجة الحموي، وابن أبي الإصبع.

وفي المبحث الثاني أتناول التطبيق في بيان النبي ﷺ – في حديث **مسلم وفيه:**

١- التوكيد بالإشارة.

٢ – التعريف بالإشارة.

٣ – دلالة الإشارة على المحذوف.

٤ – الاختصاص بالإشارة.

٥ – دلالة الإشارة على التشبيه.

٦ – إخراج المعنوي في صورة المحسوس من خلال الإشارة.

٧ – الطباق بالإشارة.

مفهوم الإشارة

أصل الإشارة من **قولهم:** شار العسل، **أي:** استخرجه من الوقبة واجتناه. **قال أبو عبيد:** شرت العسل: وأخذته من موضعه.

وقالوا: شار الدابة، **أي:** عرضها لتباع، والشارة عند العرب: الهيئة واللباس، ومنه الحديث " أن رجلا أتاه وعليه شارة حسنة " فأصول مادة " شار" **تدل علي: (**عرض الشيء، وإظهاره، والإيماء إليه**) ولهذا قالوا:** رجل حسن الشارة حلو الإشارة، وفلان صير شير: حسن الصورة والشارة، ولما كان اللباس والهيئة عرَضَين يعرف الإنسان بهما، **قالوا:** الشوار والشارة: اللباس والهيئة. وتتطور مادة "شور" التي تحمل في ثناياها معني إبداء الشيء وإظهاره وعرضه، من دلالة ظاهرية سطحية، تستند إلى هيئة الشيء إلى دلالة باطنه عميقة تعتمد على ما في غور النفس؛ فتعبر عنها، وتحكي مضامينها عن طريق الإشارة. جاء في حديث إسلام سيدنا عمرو بن العاص: " دخل أبو هريرة فتشايره الناس " أي: اشتهروه بأبصارهم، كأنه من الشارة وهي الهيئة " اللباس. وترتقي الإشارة من البصر إلي الإصبع التي تحكي بإشارتها، وتعبر بحركتها فأسموها:" المشيرة " **قالوا:**.. وأومأ إليه بالمشيرة أي: بالإصبع السبابة. [١]

وتكتسب الإشارة آلية الكلام منذ عهود الإنسانية الأولي، أو ربما كانت مصاحبة له...، وبناءً عليه يظهر مصطلح الإشارة الذي يدل على الكلام، **قالت العرب:** أشار الرجل يشير إشارة إذا أومأ بيديه، والإيماءة تدل على معني من أمر ونهي أو سواهما مما يقتضيه المقام.

١- انظر المعاجم العربية مادة (شور)

وفي الحديث:" أنه – ﷺ – كان يشير في الصلاة " أي: يومئ باليد والرأس، يعني: يأمر وينهي بالإشارة.

ثم تتطور دلالة الإشارة حيث تقترن بالكلام، ويطلق على الكلام إشارة، ولذلك سمّت العرب الخطبة " مشوارا " ولقد جاء عنهم " إياك والخطب، فإنها مشوار كثير العثار " [1]

وتلتصق كثير من الدلالات الإشارية بالأصابع فالعرب **تقول:** "ما فارقتك شبرا ولا فترا ولا عتبا ولا رتبا ولا بصما – والبصم ما بين الخنصر والبنصر. والعامة تستخدمه الآن في إقرار الأمي على العقد... أما العتب والرتب فما بين الوسط والسبابة. والفتر ما بين السبابة والإبهام. والشبر ما بين الإبهام والخنصر. والفوت بين كل إصبعين طولا. وفى حديث النبي – ﷺ – للرجل الذي كان يشير في الدعاء: أحّد أحّد....

أراد أن إشارته كلها مختلفة فما كان منها في ذكر التوحيد والتشهد فإنه كان يشير بالمسبحة وحدها، وما كان في غير ذلك كان يشير بكفه كلها ليكون بين الإشارتين فرق، والنبي يريد منه أن يوحد الإشارة، ويجعلها كلها بالسبابة.

ومنه: إذا تحدث اتصل بها أي: وصل حديثه بإشارته لتكون الإشارة مؤكدة للحديث). [2]

وهذا الالتصاق بين الإشارة والمعاني له أصول قديمة يذكرها ابن جني فيقول في حديثة عن أصل اللغة وأن منها ما نشأ من المواضعة: " فكأنهم جاءوا إلي واحد من بني آدم فأومئوا إليه، وقالوا: إنسان، إنسان، إنسان، فأي

١- سير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٢/ ٢٩٤

٢- لسان العرب مادة (شار) بتصرف

وقت سـمع هذا اللفظ عُلم أن المراد به هذا الضـرب من المخلوق. وإن أرادوا سـمة عينة، أو يده، أشـاروا إلى ذلك، فقالوا: يد، عين، رأس..... " وهذا يعني أن للإشارة صلة بالفطرة الإنسانية.

ولا يكاد الإنسان يستغني عنها، لأنها إن لم تكن وسيلة بيان فهي معينة عليه، ومنبهة إليه، ولقد دأب الوعاظ، والخطباء على تحريك أيديهم يميناً وشمالاً، يريدون تنبيه الناس، وقد لحظ شراح الحديث النبوي هذا الأمر فجعلوا له باباً خاصـاً فتراهم يقولون مثلاً " باب الإشـارة في الخطبة... وباب الرجل يشير بيده... وباب رفع اليدين على المنبر... الخ.

كل ذلك دليل ساطع على مكانة الإشارة في البيان العربي.

ولم يرد ذكر للفظ الإشارة في القرآن الكريم إلا في موضع واحد، في سورة مريم.

وذلك قوله تعالي:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [سورة مريم:٢٩]

وكان الداعي إلى الإشـارة هو التزام الأمر الصـادر إليها من قبل الله تعالى، **وذلك قوله تعالي:**

﴿...فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [سورة مريم:٢٦].

وقد ظن أهلها أنها تستهزئ بهم، لأنها تركت تكليمهم، وأشارت إلي الطفل فقالوا: ﴿...كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [سورة مريم:٢٩].

ففهموا الاستهزاء من إشارتها، لأن لإشارة بمنزلة الكلام، ولذلك قالوا: " كيف نكلم.... إلخ

وقد ورد ذكر للإشارة في سورة آل عمران، لكنها جاءت في صوره الرمز وذلك قوله تعالى لزكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [سورة آل عمران:٤١]

فقوله: "إلا رمزا" أي: "إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما". وأصل الرمز الحركة. **يقال:** ارتمز إذا تحرك.

الأول: أنه عبارة عن الإشارة كيف كانت؛ باليد، أو الرأس، أو الحاجب، أو العين، أو الشفة.

والثاني: أنه عبارة عن تحريك الشفتين باللفظ من غير نطق، وصوت.

قالوا: وحمل الرمز على هذا المعنى أولى؛ لأن الإشارة بالشفتين يمكن وقوعها بحيث تكون حركات الشفتين وقت الرمز مطابقة لحركاتها عند النطق فيكون الاستدلال بتلك الحركات على المعاني الذهنية أسهل.

الثالث: وهو انه كان يمكنه أن يتكلم بالكلام، وأما رفع الصوت بالكلام فكان ممنوعاً منه.

فإن قيل: الرمز ليس من جنس الكلام، فكيف استثني منه؟

قلنا: لما أدى ما هو مقصـود من الكلام سـمي كلاماً، ويجوز أيضـاً أن يكون اسـتثناءً منقطعاً، فإما إن حملنا الرمز على الكلام الخفي فإن الإشـكال زائل][1]

وقد ذهب القرطبي – رحمه الله –إلى أن الإشـارة تنزل منزلة الكلام حيث **يقول:** [في هذه الآية دليل على أن الإشـارة تنزل منزلة الكلام، وذلك موجود في كثير من نصـوص السـنة، واكد الإشـارات ما حكم به النبي – ﷺ – في أمر السـوداء حين قال لها: وأين الله؟ فأشـارت برأسـها إلى السـماء. **فقال:** اعتقها؛ فإنها مؤمنة.

فأجاز الإسـلام بالإشـارة الذي هو أصـل الديانة، الذي يحرز الدم والمال، وتُسـتحق به الجنة، ويُنجَّى به من النار، وحكم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك، فيجب أن تكون الإشـارة عاملة في سـائر الديانة، وهو قول عامة الفقهاء.[2]

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الإشـارة، وذكرها بلفظ الوحي، وذلك كما جاء في قوله تعالى:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

[سورة مريم:١١]

يقول الزمخشري – رحمه الله – [أوحى: أشار، ويشهد له: إلا رمزا][3]

١- مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٧/ ٢٠٤

٢- تفسير القرطبي ٢/ ١٤٣ دار الغد العربي

٣- تفسير الزمخشري ٣/ ٧

[ولا يجوز أن يكون المراد من قولـه " أوحى إليهم " الكلام؛ لأن الكلام كان ممتنعاً عليه، فكان المراد غير الكلام، وهو أن يعرّفهم ذلك إما بالإشـــارة، أو برمز مخصوص، أو بكتابة؛ لأن كل ذلك يفهم منه المراد....

واعلم أن الأشبه بالآية هو الإشارة لقوله تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ ...﴾

[سورة آل عمران:٤١]

والرمز لا يكون كناية للكلام [١]

وعليه، **فإن الإشارة في القرآن الكريم قد وردت تحت عدة أسماء:**

الأول : لفظها الصريح كما في: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة مريم:٢٩]

الثاني: الرمز كما في قوله تعالى: ﴿...قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ ...﴾ [سورة آل عمران:٤١]

الثالث: الوحي، كما في قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [سورة مريم:١١]

وهذا الأخير هو ما نبه عليه قدامة بن جعفر في الكتاب المنسوب إليه – نقد النثر – حيث عقد باباً بعنوان: باب من الوحي، وقال فيه: [وأما الوحي

١- السابق ص ٢/ ٦٦

فإنه الإبانة عما في النفس بغير المشـــافهة، على أي معنى وقعت: من إيماء، ورسالة، وإشارة، ومكاتبة.

ولذلك قال الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الشورى:٥١]

وهو على وجوه كثيرة، فمنه الإشـــارة باليد، والغمز بالحاجب، والإيماض بالعين، **كما قال الشاعر:**

وتوحي إليك باللحاظ ســـلامها مخافة واش حاضــــر ورقيب[1]

فالوحي هنا هو الإشارة بالعين، وهذا يفتح الباب أمام الإشارة فلا يجعلها مقصـــورة على حركة اليد بل يندرج تحتها ألوان كثيرة من التعابير بأي جزء من أجزاء الجسد.

وهذا ينقلنا إلى البحث في تراث علمائنا عن هذه الدلالة، وكيف عبروا عنها، وهل لفظ [الإشارة] عندهم يحمل دلالة الحركة؟

١- نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ص ٥٤ ت / طه حسين و عبد الحميد العبادي دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٥١ هـ ١٩٣٣م

المبحث الأول

الإشارة في تراث العلماء

يُعـد الجـاحظ (ت/ ٢٥٥هـ) أول من لفـت الأنظـار إلى هـذا النوع من البيان، وحدّ حدوده، وفصَـل أنواعه، وقال فيه ما لم يُسـبق إليه. والعجيب في الأمر أن علماء البيان بعد الجاحظ أعرضـوا عن هذه الدلالة، وانحرفوا بها عن طريقها الذي رسـمه، والأعجب منه أن بعضـهم عاب على المتكلم أن يستصحب مع اللفظ إشـارة باليد، أو بغيرها، وظنوا أن ذلك عجزاً وعياً عن البيان، وتقصـيراً عن امتلاك اللفظ الحامل للمراد، مع أنه شـيء مركوز في الفطرة، ولذلك يقول الجاحظ: [زعمت الأوائل أن الإنسـان إنما قيل له: العالم الصـغير، سليل العالم الكبير؛ لأنه يصـور بيده كل صـورة، ويحكي بفمه كل حكاية] [1].

فتصوير المعاني باليد فطرة فطر الله الناس عليها، عند إرادة التعبير عما في النفس، ولا يمكن أن تكون الفطرة عجزاً، بل هي عون للفظ، وموافقة له، بل لا بد من صحبتها حتى لا يلتبس الأمر عند المتلقي.

ويرى الجاحظ أن الإشـارة منها الصـواب، ومنها الخطأ، وأن ذلك مرجعه إلى توافق الإشارة مع اللفظ، أو تعارضها معه. فإذا وافقت الإشارة اللفظ صارت صحيحة، وتم للمراد أركانه، وصار المعنى بليغاً، ووصل إلى القلب في صورة بهية. أما إذا خالفت الإشـارة اللفظ، فإن المعنى يكتنفه الغموض، ويلتبس على المتلقي المراد، ويأتيه المتكلم من الباب الخطأ، فيقع في اضـطراب، ويظل

١- البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٩ دار الكتب العلمية بيروت

المعنى مطموراً؛ لأن صاحبه لم يحسن إخراجه، والإعراب عنه؛ لما بين اللفظ والإشارة من تنافر، وذاك عيب أي عيب؟!

والجاحظ يقول: [إن المعاني مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجليها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً

وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة – الحظ هذا – وحسن الاختصار، ودقة المدخل يكون إظهار المعنى....] [1]. ولقد نقل الجاحظ – رحمه الله – عن [اسحق بن حسان بن قومة أنه قال: لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط. سئل: ما البلاغة؟

قال: اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث] [2].

وهذا نص صريح في أن البلاغة تكون في الإشارة كما هي في الكلام. وإن لم تكن تستقل – غالباً – بالدلالة، فهي عون للفظ في البيان، وإذا توارى اللفظ لسبب أو لآخر برزت هي لتنوب عنه، لأنها رديفته، وتالية له في تصوير المراد.

يقول الجاحظ: [والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تُغني عن الخط.....

١- البيان والتبيين ١/ ٤٢

٢ السابق ١/ ٤٦

ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب ألبتة][1].
[والإشـــارة تكون باليد، وبالرأس، وبالعين، وبالحاجب، والمنكب.. وإذا تباعد الشخصان فبالثوب، وبالسيف] [2].

لكن التراث حمل لنا أمثلة كثيرة كانت العناية فيها بإشـــارة العين، ولعل السـر في ذلك أن العين هي أسـرع الأعضـاء حركة، والأكثر دلالة، حتى نقل ابن حزم "رحمه الله " في كتابه (طوق الحمامة) ما تعارف عليه الناس في بيئة من إشارات العين، وعقد لذلك باباً اسمه: باب الإشارة بالعين. قال فيه: ثم يتلو التعريض بالقبول – إذا وقع القبول والموافقة – الإشـارة بلحظ العين، وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب، ويقطع به ويتواصـل، ويوعد ويهدد، ويقبض ويبسط، ويؤمر وينهى، وتضـرب به الوعود، وينبه على الرقيب، ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب، ويمنع ويعطى.

ولكل واحد من هذه المعاني ضـــرب من هيئة اللحظ، لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية..

وأنا واصف ما تيسر من هذه المعاني:

فالإشارة بمؤخر العين الواحدة: نهي عن الأمر.

وتفتيرها: إعلام بالقبول.

وإدامة نظرها: دليل على التوجع والأسف.

وكسر نظرها: آية الفرح.

---

١ السابق ١/ ٦٤

٢- ٤٣/١

والإشارة إلى إطباقها: دليل على التهديد.

وقلب الحدقة إلى جهة ما، **ثم صرفها بسرعة:** تنبيه على مشار إليه.

والإشارة الخلفية بمؤخر العين: سؤال.

وقلب الحدقة من وسط العين إلى المؤق بسرعة: شاهد المنع.

وترعيد الحدقتين **من وسط العينين:** نهي عام.

وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة.

ثم يقول: والحواس الأربع أبواب إلى القلب... والعين أبلغها] [1]

ونيابة العين عن اللفظ أمر ثابت لا شــك فيه، ولعل الســبب في تواري اللفظ، وبروز الإشـــارة هو الخوف من النطق، أو عجز المبين عن الكلام، أو غير ذلك من الأسباب، وانظر مثلاً إلى **قول الشاعر:**

أشارت بطرف العين خيفة أهلها   إشـــارة مــذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً   وأهلاً وســـهلاً بالحبيب المتيم

وقال آخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها   وتعرف عيني ما به الوحي يرجع

وقال ثالث:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها   من المحبة أو بغضـــاً إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صـــامتــة   حتى ترى من ضـمير القلب تبيانا

١– طوق الحمامة في الألفة والآلاف ت / فاروق سعد ص ١٠٥ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان

إن كل هذه الشواهد دامغة على أن هناك للحواس لغة معروفة بين الناس، ولذلك تسمع من يقول " لغة العيون، ولغة الأيدي، ولغة الحواجب، ولغة الشفاه.... إلخ

وهذه اللغات تعارف عليها الناس، وإن لم يكن لها قواعد، أو مفردات، ولكن يبقى الأهم وهو أنها لغة مفهومة.

ولا شك أن مدى الصوت – مهما كانت قوة صاحبه – مدى محدود، ولو أن رجلا وقف ليحدث آخر عن بعد لما فهم منه شيئاً، وهنا يبرز دور الإشارة؛ لأنها تصل حيث لا يصل الصوت، وتحمل المراد حيث يعجز اللفظ عن حمله.

ولقد جاء في الأمثال العربية قولهم: " رفع عقيرته " وهو مثل يضرب لمن صاح صياحاً شديداً حتى أسمع القاصي والداني، وهذا المثل لا صوت فيه، لكن فيه الحركة.

ومورد هذا المثل: أن رجلاً قطعت رجله فبلغ به الألم مبلغة فرفعها على يديه، وأخذ يصيح حتى أسمع الجميع.

والعرب حين أرادت أن تعبر عن هذا الأمر تركت الصوت الذي صاح به الرجل؛ لأنه مهما علا فلن يصل إلى تصوير شدة الألم الذي أحاط به، ولكنهم التقطوا هذه الحركة التي فعلها الرجل، وهي رفع القدم المقطوع، وجعلوها مضرباً للمثل في شدة رفع الصوت.

وحكمة العرب جعلتها تفطن إلى أن رفع العقيرة أبلغ في تصوير علو الصوت من غيره، فكان التعبير هنا بالإشارة بدلاً من اللفظ، ولذلك **يقول الجاحظ:**

[ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، فهذا أيضاً باب تتقدم فيه الإشارة الصوت، والصوت هو آلة اللفظ، وهو الجوهر الذي يقوم به، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً، ولا منثوراً إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف] [1]

لكن مع هذا يقرر الجاحظ أن الإشـــارة من تمام اللفظ حيث **يقول:** (وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل، والتفتل والتثني، واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور) [2]

ولعل ذلك كان سبباً في عدم وصف الإشارة بالبلاغة عند العلماء؛ لأنها لا تستقل بالبيان لمن يستطيع الكلام، أو أن يكون في لغة غير لغة العرب [كما قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة] [3].

هل الإشارة عند الكلام عيّ؟

يرى البعض أن الإشـــارة مع الكلام دليل العي، والعجز عن امتلاك اللفظ المعبر، وأن البليغ هو الذي يمتلك ناصـــية البيان، فإذا حرك يده، أو التفت بوجهه، أو غمز بعينه، أو نحو ذلك فإنما عجز عن اللفظ فاســـتدعى غيره ليفصح به عن مكنون صدره، وكان بعضهم يفاخر بأنه عند بيانه لا يحرك من جسده ساكناً، ولا يشغل سامعه بغير لفظه، ولذلك عدوا الإشارة عيباً وخروجاً عن دائرة البيان العالي!!!.

١- البيان والتبيين ١/ ٤٢

٢- السابق ١/ ٤٣

٣- السابق /١/ ٤٩

أما البلاغة التامة عندهم فهي أنْ تحمّل اللفظ كل ما تريد، وأنت ســـاكن الجوارح... [**قال أبو الأشـــعث:** لقيت صـــحيفة هندية فإذا **فيها:** أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ متخيراً اللفظ...

وكان أبو شــمر إذا نازع لم يحرك يديه، ولا منكبيه، ولم يقلب عينيه، ولم يحرك رأسه حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة.

وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته، وكان يقول: ليس من المنطق أن نســـتعين عليه بغيره.... حتى كلّمه إبراهيم بن ســـيار النظام عند أيوب بن جعفر، فاضـــطره بالحجة، وبالزيادة في المسألة حتى حرك يديه، وحل حبوته، وحبا إليه حتى أخذ بيديه] [١]

وهكذا دلل الجاحظ على خطأ من ظن أن الإشـــارة عيّ، وأنها عجز عن الكلام، كما بين بعد ذلك أن من أكابر البلغاء من كان يُشـــير عند بيانه.. **قال ثمامة بن الأشـــرس:** كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل، والجزالة والحلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة ويقول الجاحظ أيضاً عن ثمامة بن الأشرس.

[وما علمت أنه كان في زمانه قروي، ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة الحروف ' ولا من سهولة المخرج مع السلامة عن التكلف ما كان بلغه،

١- السابق ١/ ٥٢

وكان لفظه في وزن إشـارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سـمعك بأسرع من معناه إلى قلبك] [1]

ولعل كل هذا تبيان على أن الإشارة ليست عياً، ولا نقصاً في المبين، بل هي من أدواته التي لا يستغني عنها، وإذا كان هؤلاء الذين استشهد بهم الجاحظ قد أشاروا عند بيانهم، فحسبنا أ ن رسول الله " ﷺ" كثيراً ما أشار عند بيانه، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

ومع أن الجاحظ قد فصل هذا التفصيل، وأعطى الإشارة حقها في عالم البيان، وجعلها إحدى وسـائله، بل هي النائبة عن اللفظ، والكاشـفة عن مقداره، والمؤكدة له، والمعربة عن المعاني الخاصة، أو خاصة الخاصة...

أقول: على الرغم من هذا كله إلا أن اغلب من جاء بعده من علماء البيان وضعوا عنها هذا القدر، وجردوها من هذه المكانة، وأعادوها إلى اللفظ لتدور في فلكه، وصار مستقى دلالة الإشارة مأخوذاً من اللفظ، فتاهت الدلالة وانمحت معالمها، ولم نعد نُفرِّق بينها وبين غيرها من الدلالات.

وأول من يلقانا على هذا الدرب صاحب أول أثر نقدي علمي مشهور:

الإشارة عند قدامة بن جعفر ت ٣٢٧ هـ:

لقد تحدث قدامه عن ائتلاف اللفظ والمعني، وجعل من هذه الأنواع الإشارة، ثم عرفها **فقال:** [الإشـارة: أن يكون اللفظ القليل مشـتملاً على معاني كثيرة بإيماء إليها، أو لمحة تدل عليها، كما قال بعضـهم، وقد وصـف البلاغة **فقال:** [هي لمحة دالة] [2]

١- السابق ٥٨- ٦٩

٢- نقد الشعر المنسوب إلى قدامة بن جعفر ص ١٥٥

وهذا التعريف يحوي ما يلي:

أولاً: أن مصدر الدلالة اللفظ وليس الإشارة كما يري.

ثانياً: أن دلالة هذا اللفظ القليل على المعنى دلالة اشتمال، أعني: أنها دلالة مفهومة، وليست منطوقة.

ثالثاً: أن الإشارة تقوم بمساعدة اللفظ في تكوين الدلالة، لكنه عند استشهاده عمد إلى اللفظ ليأخذ منه دلالة الإشارة، وابتعد عن الحركة والإيحاء، ويقول مستشهداً على الإشارة:

فإن تهلك شنوءة أو تبدّل   فسيري إن في غسان خالا

لعزهم عززت وإن يذلوا   فذلهم أنالَكِ ما أنالا

ثم قال: [فينبه هذا الشعر على أن ألفاظه مع قصرها قد أشير بها إلى معان طوال، فمن ذلك: " تهلك أو تبدل "... ومنه قوله: " إن في غسان خالا "..... ومنه ما تحته معان كثيرة، وشرح، وهو قوله " أنالك ما أنالا ".] [1]

وقدامة بهذا التعليق يبعد عن دور الإشارة الحقيقي في تكوين المعنى، بل إن الشعر الذي استشهد به لا إشارة فيه، ولا ما يدل عليها من قريب أو بعيد، اللهم إلا إذا عددنا الكلام الدال على الكناية أو الرمز من قبيل الإشارة.

وظل قدامة –رحمه الله –يتابع شواهده، وجميعها تدور في فلك الإيجاز، أو الكناية، أو التمثيل، ولعل الذي دفع به إلى هذا العدول أنه معنيٌ ببيان دروب المعاني الشعرية، من حيث مساواتها مع اللفظ أو زيادتها عليه، فلقد جعل الإشارة نوعاً من أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى، وهذا الائتلاف قد يكون

١- السابق ص ١٥٨

اللفظ فيه مســاويا، أو زائداً عليه، كما هو الحال في باب الإشــارة، وهذا يعني أنها عنده قسيم للمساواة.

ومع أنه عند التعريف جعل مصــدر ومســتقى هذه الزيادة من الإشــارة والإيماء واللمحة الدالة، إلا أنه عند الشرح، والتفصيل أعرض عن هذه اللمحة، وذاك الإيماء، وحصر شواهده في اللفظ، مما أحدث بعده لبساً ففُهمت الإشارة مرة على أنها نتاج الحركة، ومرة أخرى على أنها نتاج اللفظ.

الإشارة عند ابن رشيق: ت ٤٥٦ هـ

عقد ابن رشيق القيرواني في كتابة " العمدة " بابا كبيرا للإشارة بدأ بإبراز جمال هذه الدلالة فقال: [والإشــارة من غرائب الشــعر ومُلَحه، وبلاغة عجيبة، تدل على بعد المرمي، وفرط المقدرة، وليس يأتي بها إلا الشـــاعر المبرّز، والحاذق الماهر، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصـــار وتلويح يعرف مجملا، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه، فمن ذلك قول زهير:

فــإني لو لقيتــك واتجهنــا ... لكــان لكــل منكرة كفــاءُ

فقد أشــار له بقبح ما كان يصــنع لو لقيه، وهذا عند قدامة أفضــل بيت في الإشارة] [1].

ولا يخفى عليك ما في هذا الكلام من إغراب وبُعد عن دلالة الإشـــارة الحقيقية، حتى بيت الشعر الذي استشهد به. وكأن دلالة الإشارة هي كل ما يحمله الكلام من معان، سواء جاء في صورة كناية، أو تشبيه، أو استعارة.... وهذا بلا شك عجيب، لأن كل دلالة في علم البلاغة لها مصطلح متفق عليه، أما أن أجعل هذه الدلالات كلها دلالات إشــارية فهذا بعيد. والأصــل أن دلالة

١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني ١/ ٣٠٢ دار الجيل.

الإشـــارة تســتقى من حركة اليد، أو العين، أو الرأس، أو ســائر الجســد ســواء صـــاحبت اللفظ، أم جاءت وحدها، وأنا هنا أتحث عن دلالة الإشـــارة في علم البلاغة، لأن هناك في علم أصول الفقه مفهوماً آخر لدلالة الإشارة.

وأعود إلى ابن رشيق حيث يقول عن البيت السابق: [فقد أشار له بقبح ما كان يصنع لو لقيه] ثم حكم على هذا البيت بأنه أفضل بيت في الإشارة، مع أن ابن قدامة لم يعلق على هذا البيت بقليل، ولا بكثير. وفي بيت آخر يقول الشاعر فيه:

جعلت يدي وشـــاحاً لـه وبعض الفوارس لا يعتنق

يقول ابن رشيق: [وهذا النوع من الشعر هو الوحي عندهم...] [1]

لقد جعل ابن رشـيق كل ما يسـتعذبه من الشـعر، وكل ما لطف، ودق في المعنى، جعله من باب الإشـــارة؛ ولأجل هذا فتح الباب لكل ألوان البيان. فهذه إشــارة على معنى التشــبيه، **ويمثل لها بقول الشــاعر:** " جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط "وهذه إشارة على معنى الاستفهام، **ويمثل لها بقول الله تعالى:**

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ [سورة القارعة١ :٢]

وهذه إشارة على معنى التعريض كقوله تعالى:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان:٤٩]

وإشارة على معنى الكناية، وإشارة على معنى التمثيل، وإشارة على معنى الرمز، وأخرى على معنى اللحن..... إلخ.

١- العمدة لابن رشيق ص ٤٠٧

وغير ذلك كثير مما يعني أن دلالة الإشارة قد تاهت، وأصبح كل معنى مفهوم معنىً إشارياً !!، ثم يعود ابن رشيق لينتصر للدلالة الحقيقية للإشارة فيعرض رأي من يزعم أن الإشارة حشو، ويستدلون على ذلك **بقول أبي نواس:**

قال إبراهيم بالما ل كذا غرباً وشرقاً

فزعموا أن قوله [كذا] حشو، وعجز عن اللفظ الدال على الإشارة. ثم ينتصر لأبي نواس، ولدلالة الإشارة، فيقول: [ولم يأت بها أبو نواس حشواً، ولكن شطارة، وإن شئت قلت: بياناً وتثقيفاً، كما قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: " وكيف بك إذا بقيت في حثالة الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا... وكانوا هكذا..؟ وشبك بين أصابع يديه ".

ولا أحد أفصح من رسول الله – ﷺ –، ولا أبعد كلاماً منه من الحشو، والتكلف] [1]

وهذا الكلام يناقض كلامه السابق، فهو هنا يحدد مستقى الدلالة، ويبرز أهمية الحركة في تكوين المعنى، بل إنه بعد ذلك ذكر من لطائف هذه الدلالة ما لا يكاد اللفظ يقوم به.

ومن ذلك: [أن معاوية – رضي الله عنه – أقام الخطباء لبيعة ولده يزيد، فقام رجل من ذي الكلاع **فقال:**

هذا أمير المؤمنين وأشار بيده إلى معاوية.

فإن مات فهذا وأشار إلى يزيد.

١- العمدة ص ٣٠٩

فــمــن أبــى فــهــذا وأشـــار إلى الســيف.

ثم قال:

معــاويــة الخليفــة لا نمــاري فإن يهلك فســائســنا يزيد

فمن غلب الشــقاء عليه جهلاً تحكم في مفارقـه الحـديـد [1]

فابن رشـــيق بهذا لا يترك مجالاً لأحد أن يتهمه بالانتقاص من دلالة الإشارة، أو تغييبها داخل الدلالات الأخرى.

لكن... أين هذا مما قاله أولاً؟ أليس هذا عجيباً؟

ولو أنك أردت أن تبرز ما في الإشـارة من دلالات في البيتين السـابقين لوجدت اللفظ منك يطول؛ لأن الشاعر أراد أن يبرهن على أحقية سيدنا معاوية، وولده يزيد بالخلافة، وكان لزاماً عليه أن يذكر صـــفات كل واحد منهما التي تؤهله لهذا المنصـــب، ولمّا كان هذا يطول دعاك أن تنظر بإشـــارته بيده إلى معاوية ليتحقق لديك بما لا يدع مجالاً للشك في أحقيتهما للخلافة.

ألا ترى أن إشارته بيده جمعت من المعاني ما لا حد له؟!

فإن اقتنعت بذلك فاعلم أن هذا هو ســـر الجمال، ولب الإبداع وموطن الفن في هذه الإشـــارة، فهي لا تذكر لك المعنى، بل تضـــع عينك عليه لتراه، وفرق بين الأمرين كبير.

ثم يتابع ابن رشيق كلامه في هذه الدلالة، وكأنه يريد منك ألا تلتفت إلى كلامه الأول؛ لأن الإشـــارة عنده لها قدرة فائقة على تصـــوير المعنى، بل وتستطيع أن تستقل بالدلالة، ومن ذلك ما حكاه عن أبي نواس، **حيث يقول:**

١- السابق ٣١٠

[وقد جاء أبو نواس بإشـــارات أخر، لم تجر العادة بمثلها، وذلك أن الأمير بن زبيدة قال له مرة: هل تصـــنع شـــعراً لا قافية له؟ قال: نعم، وصـــنع من فوره ارتجالاً:

ولقد قلت للمليحة قولي من بعيد لمن يحبك..... " **إشارة:** قبلة "

فأشارت بمعصم ثم قالت من بعيد خلاف قولي..... " **إشارة:** لا، لا "

فتنفست ساعة ثم إني قلت للبغل عند ذلك....... " **إشارة:** امش "

فتعجب جميع من حضـــر المجلس من اهتدائه، وحســـن تأتيه، وأعطاه الأمين صلة شريفة] [1]

فلا شك أن صنيع أبي نواس في غاية الإبداع والبيان، حتى أكاد أزعم أن اللفظ لا يقوم مقام الإشـــارة هنا، من أين لنا بلفظ يعبر عن صـــوت القبلة، وكم من أصوات لا بيان لها؟

ومن كل ما سبق عند ابن رشـيق يتبين لنا أنه في بداية كلامه خلط بين دلالة الإشـارة، ودلالة الصـور البيانية، حتى التبس الأمر على القارئ..، ثم في آخر كلامه حرر الدلالة، واســـتشـــهد عليها بشـــواهد تبرهن على أثر الحركة المشاهدة في المعنى.

الإشارة عند عبد القاهر ت ٤٧١هـ

الناظر في كتابي عبد القاهر لا يلحظ عناية بهذا النوع من البيان: لأنه – رحمه الله –كان مشـغولاً بقضـية الإعجاز القرآني، وأنها في نظم الكلام، وهذا الهم شغله عن التعريج علي

١- العمدة ص ٣١٠

وسائل البيان الأخرى، إلا بعض اللفتات القصيرة، وذلك مثل تعليقه على **ما لحق البيان من الضـيم:** لأن البعض [لا يري معني أكثر مما يري للإشـارة بالرأس والعين. وما يجده للخط والعقد]. [1]

وكذا قوله لمن أعرض عن الشـعر بسـبب وزنه أن ينظر إلي ما فيه من [حسـن تمثيل، واسـتعارة، وإلي التلويح والإشـارة، وإلي صـنعة تعمد إلي معني الخسيس فتشرفه...] [2]

وكذا كلامه عن المزية، وأنها من حيز المعاني حيث **يقول:** [وينبغي أن تأخذ الآن في تفصـيل أمر المزية وبيان الجهات التي منها تعرض، وأنه لمرام صـعب، ومطلب عسـير، ولولا أنه على ذلك لما وجدت الناس بين منكر من أصـله، متخيل لـه على غير وجهه ومعتقد أنـه بـاب لا تقوي عليـه العبارة. ولا يملك فيه إلا الإشارة] [3].

ولقد سـار الإمام – رحمه الله – على هذا الضـرب. يُبين دقائق البيان، ووجوه الإعجاز في نظم الكلام، وهذه الغاية جعلته لا يعتني إلا بها.

وهذا يعني إن الإمام مع أنه أقر وذكر الإشـارة في كلامه، لكنه شُـغل عنها بغايته التي عقد كتابيه – الدلائل والإسـرار – عليها، وهي بيان وجه الإعجاز في القرآن الكريم.

١- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص٦ أبو فهر محمود شاكر مكتبة الخاجي القاهرة.

٢- السابق ص ٢٧

٣- السابق ٦٥

الإشارة عند ابن أبي الإصبع (تـ ٦٥٤ هـ)

عقد ابن أبي الإصبع بابا للإشارة ونقل نقلا عن غيره، ولكنه زاد في هذه الدلالة زيادات جليلة جعلته يمثل مرحلة من مراحل تطور دلالة الإشارة.

فلقد نقل عن [هند بن أبي هالة في وصف رسول الله ﷺأنه" كان يشير بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا حدث اتصل بها فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى " فوصفه ببلاغة اليد، كما وصفه ببلاغة اللسان، يعني أنه يشير بيده في الموضع الذي تكون فيه الإشارة أولى من العبارة، وهذا حذق لمواضع المخاطبات] [1].

ثم راح ابن أبي الإصبع يشرح هذا، **فقال:** [يشير بكفه كلها. **أي:** يُفهم بها المخاطب كل ما أراده بسهولة، فإن الإشارة ببعض الكف تصعب، وبكل الكف تسهل.

فأعلمنا هذا الوصف أنه ﷺكان سهل الإشارة كما كان سهل العبارة.

" فإذا تعجب بها قلبها" **يعني:** أنه أتى بها على وجهها إذا كان المعنى الذي يشير إليه على وجهه ليس فيه ما يستغرب فيعجب منه، فإن الشيء المعجب إنما يكون معجباً لكونه غير معهود. فكأن الأمر فيه قد قُلب لمخالفته المعهود، فلذلك يجعل قلب يده في وقت الإشارة إشارة إلى أن هذا الأمر قد جاء على خلاف المعهود، ولذلك تعجب منه.

وقوله: " وإذا تحدث اتصل بها " **يعني:** اتصل حديثه بها، فيكون المعنى متصلاً، والمفهوم بالعبارة والإشارة متلاحماً، آخذ بعضه بحجز بعض. **وقوله:** " فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى " **يعني:** أنه عند انتهاء

١– تحرير التحبير لابن أبي الأصبع ص ٢٠٠ ت / حفني شرف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

إشارته يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، مشيراً إلى أنه ختم إشارته، ومعناه، ولذلك عطف هذه الجملة بالفاء، ولم يأت بها معطوفةً بالواو، كما أتى بما قبلها من الجمل، لكونها آخر إشـــارته. والواو لكونها غير مقتضـــية للترتيب يجوز أن يكون المتأخر بها متقدماً ولا كذلك الفاء، إذ لا بد أن يكون المعطوف بها متأخراً؛ لكونها موضـــوعة للتعقيب. وأما اقتصـــاره على باطن الإبهام دون ظاهرها"

فمعناه: أنه جعل آخر الإشـــارة متصـــلاً بأول العبارة اتصـــالاً متلائماً كملاءمة باطن الكف التي ضـــرب بها باطن الإبهام التي ضـــرب عليها، وهذا أيضاً من بلاغة الواصف.) [1]

وهذا الكلام كلام نفيس لأنه يضـــــع أصـــــولاً لقواعد هذه الدلالة وهذه الأصـول لابد من تعليمها حتى يستطيع كل مبين أن يُخرج مراده ويختار له ما يناسبه من ألوان البيان لفظا كان أو إشارة...

ومع أن هذا الكلام صـريح في قدره الإشـارة على حمل المعاني، وتكوين الدلالات، إلا أن العجيب أن ابن أبي الإصبع حين استشهد أعرض عن كلامه، وأتي بشواهد بعيدة عما قال،

شـــــواهد كل ما فيها أن اللفظ القليل يحمل المعاني الكثير، وهذا أشـــــبه بالانفصام بين القاعدة والمثال، وهو ما وقع فيه الكثيرون.

ولعل الســـــبب في ذلك، فيما لاحظته أن علماء البلاغة حين يكتبون، ويريدون التجديد في كلام السـابقين، والإضـافة إلى ما سـبق يختلف النظر عن التطبيق، فهم في التنظير يقولون الجديـد، فـإذا جاءوا إلى التمثيـل أخـذوا من

١- السابق ٢٠٠-٢٠٢

السابقين شواهدهم وسطّورها، ولذلك تجد أغلب الشعر المستشهد به في دلالة الإشارة شعرًا واحدًا، إلا ما نذر.

الإشارة عند ابن حجة الحموي:

لقد إضاف ابن حجة الحموي إلى هذه الدلالة إضافة ينبغي ذكرها هنا، حيث **قال:** [هذا النوع " أعني الإشارة " مما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وشرح ذلك فقال: هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعنى الكثير، بإيحاء ولمحة تدل عليه، كما قيل في صفة البلاغة: هي لمحة دالة.

وتلخيص ذلك: أنه إشارة المتكلم إلى المعاني الكثيرة بلفظ يشبه لقلته واختصاره إشارة اليد، فإن المشير بيده يشير دفعة واحدة إلى أشياء لو عبر عنها بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة.

ولابد في الإشارة من اعتبار صحة الدلالة، وحسن البيان مع الاختصار؛ لأن المشير بيده إن لم يفهم المتلقي معنى إشارته فإشارته معدودة من العبث، وكان النبي ﷺ سهل الإشارة كما كان سهل العبارة، وهذا ضرب من البلاغة يمتدح به] [1]

وفي كلام ابن حجة تنبيهات ينبغي الوقوف عليها، لأنها تمثل مرحلة من مراحل تطور هذه الدلالة، **ومنها:**

أولاً: أن دلالة الإشارة مع كونها من اللفظ لكنها سميت كذلك تشبيهاً بحركة اليد التي تفهم منها معان كثيرة دفعة واحدة، فكذلك اللفظ إذا فهم منه معان كثيرة دفعة واحدة كان فيه دلالة إشارة كما يقول.

١- خزانة الأدب لابن حجة الحموي ٢/ ٢٥٨ شرح عصام شعيتو دار مكتبة الهلال بيروت.

ثانياً: يشترط ابن حجة صحة هذه الدلالات حتى لا يدعي كل أحد أن في اللفظ دلالة كذا، واللفظ لا يحتملها. **يقول:** [فلابد في الإشـــارة من اعتبار الصحة، وحسن البيان مع الاختصار] [1].

ثالثاً: أن من الإشارة ما يوصف بالسهولة، ومنها ما يوصف بالتعقيد، وسهولة الإشارة **تعني:** وصول المراد إلى القلب دون وسائط. ومع كل هذا إلا أنك تراه **يقول:** [والإشارة **قسمان:** قسم للسان، وقسم لليد] [2] لكنك إن بحثت عن القســـم الذي لليد فلن تجد له شـــاهداً في كتابه، فجميع شـــواهده في دلالة اللفظ القليل على المعنى الكثير، وهذا بلا شـــك دلالة إيجاز وليست دلالة إشارة باليد كما نص هو" رحمه الله ".

الإشارة عند الفقهاء:

حظيت دلالة الإشـارة لدى الفقهاء بعناية فائقة، وبنوا عليها أحكاماً، حتى وإن وردت وحدها دون مصـــاحبة اللفظ، مما يعني إمكانية اســتقلالها بالدلالة، ومن ذلك ما جاء في كثير من أبواب الفقه، **يقول المهلب:** [قد تكون الإشـــارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام، **مثل قوله** "ﷺ": بعثت أنا والساعة كهاتين [3] فعرّف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوســطى على الســبابة. وفي اجتماع العقول على أن العِيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشـــارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام] [4].

١- السابق ٢/ ٢٥٨ ٢- السابق ٢/ ٥٩

٢- السابق ٢/ ٣٥

٣- أخرجه البخاري في كتاب الرقائق رقم ٢٩

٤- الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٢٧٦

ومن الأفكار التي بنيت على الإشارة عند الفقهاء:

أنهم [كرهوا للرجل التكلم والإمام يخطب، وإن تكلم غيره فلا ينكر عليه إلا بالإشارة] [1]

[واشترطوا لحل الذبيحة شروطا، منهاً: أن يقول باسم الله عند حركة يده بالذبح...... فإن كان الذابح أخرس أومأ برأسه إلى السماء، وأشار إشارة تدل على التسمية، بحيث يفهم منها أنه أراد التسمية، وهذا كاف في حل ذبيحة الأخرس. وفي حكم البدء بالسلام قالوا:

وإذا قال: السلام عليك، وأشار على محمد بدون تسميته فرد أحد الحاضرين، فإن الفرض يسقط؛ لأن الإشارة تحتمل أن تكون لهم جميعاً، وكذا إذا قال: السلام عليك، بدون إشارة، فإنه إذا رد واحد سقط عن الباقين؛ لأنه يصح أن يخاطب الجماعة بخطاب الواحد..... وفي مبحث اليمين قالوا: وإذا حلف ألا يأكل هذا وأشار إلى قمح بدون أن يذكره، فإنه يحنث إذا أكل منه على هيئته، أو أكل من دقيقه، أو خبزه، أو أي شيء يتولد منه... وفي كتاب النكاح قالوا: وإذا تزوجها على (هذا الفرس، أو هذا الفرس) وأشار لها إلى فرسين، وكان أحدهما أقل من الآخر حكم بمهر المثل. وفي باب القذف قالوا: إن القذف لا يصح إلا بالتصريح.... قال ابن القصار: وهذا باطل، وقد نص مالك على أن شهادة الأخرس مقبولة، إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة...] [2]

أما علماء الأصول، **فإنهم ذكروا من أنواع الدلالات:** دلالة الإشارة؛ لكنهم لم يخرجوا بها عن التركيب ونظمه، وجعلوها ثمرة للفظ وإيماءاته، فقالوا

١- الدين الخالص لمحمود خطاب السبكي ٤/ ٣٩

٢- الفقه على المذاهب الأربعة ١/ ٤

عنها: إنها [دلالة النظم على معنى لم يســـق لأجله، لعدم قصـــــد المتكلم له في نفســـه، لكن الســـامع يعلمه بالتأمل في معنى النظم من غير زيادة عليه ولا نقصان] [1]

[وجوهر هذه الدلالة عندهم ماثل في أمرين: أنها دلالة نظمية، وأنها دلالة غير مقصــودة للمتكلم بهذا النظم. ووجه تسـمية هذه الدلالة إشـارة عندهم أن المتكلم قد يفهم بإشـارته، وحركته في أثناء كلامه ما لا يدل عليه نفس اللفظ فيسمى إشارة] [2]

وكل ذلك كما ترى متولد عن اللفظ، ولا علاقة له بدلالة الحركة، وإن كان الأصـل في اصـطلاح لفظ الإشـارة هو الحركة، لكنهم عند تحديد الدلالة نظروا إلى اللفظ، وأغفلوا الحركة المصاحبة له.

ولذلك يرى بعضــهم أنها دلالة التزاميه تسـتقى من اللفظ غير الصـريح، ويرى آخرون أنها تفهم من اللفظ، ولا يدل اللفظ عليها، ومن ذلك مثلاً ما يقوله الجصــاص في أحكام القرآن حول قول الله تعالى: " يحسـبهم الجاهل أغنياء من التعفف" **يقول:**[يؤخذ منه بطريق الإشـــارة: أن الفقير قد يملك بعض ما يغنيه، وليس هو الذي لا يملك البتة، فإنه لا يحســــبه الجاهل به غنياً من أجل تعففه إلا إذا كان ظاهر حاله ساتراً حقيقته، وذلك لا يكون مع العدم المحض] [3].

ويؤخذ منه أيضـــاً بطريق الإشـــارة أن على الفقير ألا يظهر حاله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فقد جاءت الآية في معرض المدح.

١- أصول الفقه للرضي ١/ ٢٣٦ ت / أبو الوفا الأفغاني ط / دار الكتاب العربي ١٣٧٢ هـ

٢- سبل الاستنباط من الكتاب والسنة لمحمود توفيق سعد ط / الأمانة ١٤١٣ هـ ص ١٨٢.

٣- أحكام القرآن للجصاص ٤ / ٣٢٣ ت / محمد صادق القمحاوي دار إحياء التراث بيروت

ويؤخذ منه أيضـاً: أن على أهل الفضـل أن ينقبوا عن أولئك المتعففين، ويعينوهم على استتارهم ببذل ما يحفظ ماء الحياء في وجوههم] [1].

وكل هذه المعاني مرتشفه من اللفظ وسياقه، لكن لا يوجد ذكر هنا لحركه أو إشارة، مما يعني أن الأصوليين ــ أيضاً عدلوا بالإشارة عن حقيقتها، وعمدوا إلى اللفظ وإشارته **أي:** دلالته.

ولم تقف أهمية هذه الدلالة عند الفقهاء والبلاغيين فقط، بل إن الناس كانوا يتعارفون على إشـارات فيما بينهم ومن ذلك ما ذكره شـمس الدين العظيم أبادي في شـرحه لسـنن أبي داود. **يقول:** [جاء عن ابن سـيرين أنه **قال:** كانوا يسـتأذنون الإمام – وهو علي المنبر – فلما كان زياد، وكثر ذلك بينهم، **قال:** من وضع يده علي أنفه فهو إذنه] [2].

وهذا اصـطلاح بين هؤلاء فقط، مما يعني أن الجميع كان يأوي إلى الإشارة، إن صرفه صارف عن اللفظ.

وقفه على ما سبق.

هذا مما سطّرهُ علماؤنا عن الإشارة، ولقد تبين لي بعض الأمور أوجزها فيما يلي:

أولاً: اتفق الجميع على أن الأصـل في البيان هو اللفظ، ولم يختلفوا حول الإشارة، وكونها ضرباً من البيان أيضاً.

١- سبل الاستنباط ص ١٨٤

٢- عون المعبود شرح سنن أبي داوود لشمس الدين العظيم أبادي ٣ / ٢٢٠ ط / دار الكتب العلمي بيروت

ثانياً: أن أول من كشف اللثام عن هذه الدلالة، وفصل غوامضها الجاحظ، ومع ذلك لم يسر خلفه الباقون بل حارت الدلالة عندهم وضوحاً وغموضاً، وإن كان لهم إضافات لا تنكر.

ثالثاً: أن للإشارة دلائل واضحة وناطقة في بيان الوحي، كما أن لها دلائل في بيان العرب قديماً شعراً ونثراً.

رابعاً: أنهم اختلفوا في وصف الإشارة بالبلاغة، فمنهم من وصفها بالبلاغة كابن المقفع، وابن حجة الحموي، وابن أبي الإصبع، ومنهم من قصر البلاغة على اللفظ.

خامساً: أن دلالة الإشارة مركوزة في فطرة الإنسان، وعليه لا يجوز وصف البليغ إذا أشار بالقصور، أو العيب، أو العي.

سادساً: لابد في الإشارة من موافقة اللفظ حتى يسهل المعنى على المتلقي، أما إذا كان اللفظ في جانب، والإشارة في جانب مغاير أدى الأمر إلى التعقيد المذموم.

سابعاً: إن حقل البيان ما زال في حاجة إلى الكشف عن وسائل البيان الأخرى غير اللفظ.

ثامناً: للإشارة مقامات لا يستطيع اللفظ القيام بها، كالبيان للبعيد، وبيان الخائف، والبيان عن أمور لا لفظ لها في العربية، كما في بعض الأصوات.

تاسعاً: أن لكل حركة دلالة ينبغي تمييزها عن غيرها، وتحديد دورها في تكوين المراد.

وددت لو تم اصطناع معجم لدلالة الإشارات في بيان السابقين، وعلى رأس ذلك بيان الوحي، ثم بيان العرب القديم.

ولقد ألمح إلى مثل ذلك ابن حزم حيث **قال:** الإشارة بمؤخرة العين الواحدة، **تعني**: النهي.

وتقصيرها: إعلام بالقبول. **وإدامة نظرها**: دليل على التوجع. وقبض اليد يعني: القوة.

وغير ذلك كثير في التراث، ومن الممكن جمعه، ووضعه في معجم يستعين به كل مبين.

المبحث الثاني

دلالة الإشارة في البيان النبوي

توطئة:

لا شك أن كل بيان يحمل صفات قائله، فالبيان القرآني يحمل كل كمال، وكل تنزيه وإحاطة، وكل ما يليق بالله تعالى من صفات. وإذا كان الحكماء من البشر يملكون من البيان أعلاه، وأصفاه، فما أبان أحد كبيان رسول الله ﷺ، وللإشـــارة في بيانه مقام رفيع لا يقل عن مقام اللفظ، ولقد حرص الرواة حين سمعوا رسول الله **يقول:** "بلغوا عني" علي نقل هذا البيان كاملاً غير منقوص، بما فيه من لفظ وخط وإشارة وعقد وحال، لأنهم علموا أن هذه الإشارات ليست حشوا، أو كمّا مهملا، بل لها دور في بناء المعني، وتكوين الدلالات، فقد يكون خلف الإشارة حكم، أو تكليف، أو وصية، أو نحو ذلك من تعاليم الدين، فيغيب عن الناس فيتحملوا وزره؛ لأجل ذلك نقلوا إلينا كل شـــيء، حتى إشـــاراته، فتسمعهم **يقولون:** قال رسول الله "ﷺ" كذا، وأشار بالسبابة والوسطى، أو قال كذا وجمع بين أصـــابعه، أو شـــبك بين أصـــابعه، وتراهم يقولون: خط رسول الله خطوطاً في الأرض... ثم قال كذا...بل إنهم أطلقوا على الإشارة لفظ **(القول):** فتسمعهم **يقولون:** قال بأصبعه كذا، وهذه نماذج أحاول أن أتبين أثر البلاغة الكامنة خلفها، حتى لا تنحصر البلاغة في صناديق الكلام.

التوكيد بالإشارة

لا شـــك أن توكيد المســـند أو المســـند إليه إنما هو تقرير لكل منهما، وتحقيق لمفهومهما؛ رغبة في جعله ثابتاً بحيث لا يظن به غيره، والإشـــارة تقوم بهذا الدور خير قيام، ولقد جاءت أحاديث كثيرة ترى فيها الإشـــارة مؤكدة للفظ، ومدعمة له، وكأن وصــول المعنى إلى القلب عن طريق السـمع لا يكفي، فأريد اسـتصـحاب طريق إضـافي، فإذا وجد القلب أن المعنى قد وصــله من طريقين مختلفين، وكل منهما يؤكد الآخر، فتح للمعنى الباب ليستقر فيه.

ولا شـك أن العلماء كانوا يسـتعينون على المعني الواحد بعدة طرق لفظية مثل التوكيد اللفظي والمعنوي، وغير ذلك – لأنهم كانوا يرون في المعني فخامة تحتاج إلى هذا الحشد.

فما المانع أن تؤازر الإشـارة اللفظ في المعاني الشريفة، والمقامات العالية التي تحتاج إلى ألوان أخرى من المؤكدات، حتى تسـتقر في النفوس، ويزول ما فيها من ريب.

ومن هذا الباب ما جاء في فتح خيبر من حديث سلمة بن الأكوع.

أنه قال: لما كان يوم خيبر قاتل أخي قتالاً شـديداً مع رسـول الله ﷺ فارتد عليه سـيفه فقتله، فقال أصــحاب رسـول الله ﷺ في ذلك، وشـكّوا فيه: رجل مات في ســلاحه، وشــكوا في بعض أمره... **قال ســلمة:** فقفل رســول الله ﷺ من خيبر، فقلت: يا رسـول الله ائذن لي أن أرجز لك، فأذن له رسـول الله ﷺ فقال عمر بن الخطاب أعلم ما تقول، **قال، فقلت:**

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فقال رسول الله ﷺ " صدقت "

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا

قال: قلما قضيت رَجَزي قال رسول الله ﷺ" من قال هذا "؟

قلت: قاله أخي، فقال رسول الله ﷺ: " يرحمه الله "

فقلت: يا رسول الله! إن ناساً ليهابون الصلاة عليه، يقولون رجل مات بسلاحه.

فقال رسول الله ﷺ: " مات جاهداً مجاهداً "، وفي رواية " كذبوا، مات جاهداً مجاهداً فله أجره مرتين، وأشار بأصبعيه " [1]

فقوله: مرتين، ثم يشير بإصبعيه إنما هي توكيد لفظي لأن المقام في حاجة إلى ذلك، وانظر إلى ما أصاب سيدنا سلمة بن الأكوع من غم حين رأى إعراض الصحابة عن الصلاة على أخيه، حتى ارتاب في الأمر، ودخله ما دخله من الشك في عاقبة أخيه، ومن هنا كان من الأولى إزالة هذا الشك من عنده، ومن عند جميع الصحابة، فأكد النبي ﷺ كلامه بالإشارة، لتكون الإشارة توكيداً لا يبقى معه لبس، ولا غموض في فوز أخي سلمة بالجنة، والشهادة في سبيل الله تعالى، فالآذان ستظل تذكر كلام النبي، والعيون كذلك ستظل ترى هذه الإشارة المصاحبة للفظ لتكون بياناً توكيدياً لها.

ومن هذا الباب قول النبي ﷺ: [تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم بمقدار ميل، قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين؟

قال: " فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً "

١- رواه مسلم ٤٥٨٨ وأبو داوود ٢٥٣٨

قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه. [1]

فقولــه ﷺ" ومنهم من يلجمــه العرق إلجــامــاً، يفهم منــه أن العرق قد وصل إلى الفم، هذا منطوق العبارة، والذهن يتصور ذلك، لا شك،. إذن، ما الإضافة التي أضافها رسول الله إلى المعنى بإشارته؟

وهل قصّر اللفظ عن أداء المراد حتى تأتي الإشارة؟

إن الإضــافة التي أتت بها الإشــارة، كما أفهم، هي اســتحضــار الصــورة لتشــاهدها العيون، فوضــعُ رســولِ الله ﷺ يده على فيه نقل المعنى من عالم الغيب إلى عالم الشـهادة، وهذا من أرفع صـور التوكيد فالناس الآن لا يسـمعون الكلام، بل يرون صــورة هذا الرجل الذي ألجمه عرقه، يرونه الآن أمام عيونهم، وهو يحاول النجاة، أو التخلص من هذا العرق بعد أن وصــــل إلى فيه، وأخذ بخناقه، ويكاد يســـد أنفاســـه، هكذا ينظر الســـامع إلى المعنى بعد إشـــارة النبيﷺ.... أما اصـطفاء هذا الصـنف، أعني: الذي يلجمه العرق، لتصـويره دون غيره ممن وصــل العرق إلى كعبيه، أو ركبتيه... الخ، فلأنه الأشــد كرباً، والمقام مقام ترهيب من يوم القيامة، والســياق ســياق زجر، فالشــمس تدنو من الرؤوس، والكل في ضــيق ووجل، فكان الأبلغ اســتخلاص أشــد الصــور نفوراً فكان من يلجمه العرق إلجاماً هو الأليق بالمقام فوقع التصــوير بالإشــارة عليه، لأن من رأى ليس كمن سمع.

١- رواه مسلم ٧٠٦٦ والترمذي ٢٤٢١

التعريف بالإشارة المحسوسة

تحدث البلاغيون عن التعريف باسم الإشارة، وجعلوا لذلك أغراضاً كثيرة، منها: تمييز المشـــار إليه أكمل تمييز، ومنها المدح، أو الذم، أو لبيان حاله في القرب أو البعد، أو التوسـط، وقد يكون التعريف باسـم الإشـارة غرضــه التنبيه على ما سبق ذكره في الكلام.. وغير ذلك، ولقد بينوا أن هذا التعريف يرقى إلى مرتبة عالية، وذلك بســبب مصـــاحبة الإشـــارة الحســـية للفظ المســـموع.، **يقول السـبكي في عروس الأفراح:** [يؤتى بالمسـند إليه اسم إشـارة لأحد أمور: **الأول:** أن يقصـد تميزه لإحضـاره في ذهن السـامع حسـاً... فالإشـارة أكمل ما يكون من التمييز **كقول ابن الرومي:**

هذا أبو الصـقر فرداً في محاسـنه　　　من نسل شيبان بين الضال والعلم[1]

انظر إلى قوله: " لإحضاره في ذهن السامع حساً " فهذا يعني مصاحبة الحركة للفظ.

ويقول الدسوقي في حاشيته على السعد: [والتمييز الأكمل هو ما كان بالعين والقلب، فإنه لا تمييز أكمل منه، ولا يحصـــل ذلك التمييز إلا باســـم الإشارة....

ودلالة اسم الإشـارة على أكملية التمييز لأن معه إشـارة حسـية، ولا يتأتى معه اشتباه..

واسم الإشارة إذا كان المشار إليه حاضراً محسوساً للسامع بحاسة البصر كان أقوي.] [2]

١- شروح التلخيص عروس الأفراح للسبكي ١ / ٣١٣

٢- حاشية الدسوقي علي شرح السعد ١/ ٣١٣.

وكل هذا يدل على قدرة الإشارة الحسية على حمل المعاني، بل إن أسماء الإشارة لا تتخيل إلا إذا صاحبتها حركات حسية، يلفت بها المتكلم نظر السامع إلى ما يريد.

ومن هذا الباب ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه **قال:** [كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة " وآخرين منهم لما يلحقوا بهم...

قال: قلت: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان، ثم قال: " لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء "] [1]

فقوله " لناله رجال من هؤلاء " صاحَبَه وضع يده على سلمان الفارسي، حتى يكون التمييز في أكمل صورة، وبخاصة أن السائل صار في شوق إلى معرفة هذه الطائفة التي تلحق بالسابقين الأولين. ووضع اليد على سيدنا سلمان قصد به رجال من أهل فارس، وهذا يفسره رواية أبي هريرة في صحيح مسلم: **قال رسول الله** صلى الله عليه وسلم **(لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس – أو قال – من أبناء فارس حتى يتناوله)** [2]

وليس المقصود اختصاص أهل فارس بسبب فارسيتهم، وإنما المقصود ما يتحلون به من طاعة والتزام. ولقد نقل ابن حجر بعضاً مما جاء في أسباب نيل هؤلاء هذه الدرجة، **ومنها:**

١- البخاري رقم ٤٨٩٧ والترمذي ٣٣١٠ والنسائي ٩ / ٤٦٠

٢- صحيح مسلم ٢٥٤٦

ما جاء زيادةً في إحدى الروايات "برقة قلوبهم"، وفي أخرى "يتبعون سنتي، ويكثرون الصلاة على"[1].

وعلى هذا فالإشارة الحسية تلفت انتباه الناس إلى صفات هذه الطائفة، التي تتحلى بالإيمان، ولو كان عند الثريا.

ووضع اليد على سيدنا سلمان يعني أنه كان متحلياً بهذه الصفات فجاءت الإشارة الحسية لينظر الجميع إليه، وإلى صفاته فيكون ذلك دافعاً إلى التشبه به.

١- فتح الباري ٨، ١٥

دلالة الإشارة على المحذوف

قد تأتي الإشـــارة لتدل على لفظ محذوف لكنه مراد في المعنى، وعدم التصـريح بهذا اللفظ له أسـباب كثيرة: **مثل**: الاختصـار، والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر، أو ضيق المقام [1].

ولا شـــك أن للحذف مكانة عالية في البلاغة. ويكفي هنا ما ذكره الإمام عبد القاهر من أن الحذف [باب رقيق المســـلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبِن][2].

وقد يعمد المبين إلى الإيماء، وإلى المحذوف بإشـارته، وعندها تكون هذه الإشارة هي الدليل علي المحذوف فتكسبه وضوحا وبيانا قد لا يتوفران في ذكره، ومن ذلك ما رواه سيدنا عبد الله بن عباس أن رسـول الله ﷺ **قال:**" أمرت أن أســجد على ســبعة **أعظم**: الجبهة وأشـــار بيده على أنفه، واليدين، والرجلين، وأطراف القدمين، ولا تكفت الثياب ولا الشعر[3].

والحديث حذف منه لفظ " الأنف وإن كان أشـــير إليه باليد، ذلك لأن الأصـل في الرأس الجبهة، فالسـجود عليها هو الفرض ويتبع ذلك الأنف، وكان التصـــريح بالجبهة، وحذف الأنف يعني أن كلا منهما ليســا على درجة واحدة في الســجود. [**قال القرطبي**: هذا يدل علي أن الجبهة الأصـــل في الســـجود والأنف تبع.... **وقال ابن دقيق العيد**: **قيل**: معناه أنهما جعلا كعضـــو واحد،

١- شروج التلخيص ١، ١٧٣

٢- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص١٤٦

٣- رواه مسلم ١٠٧٧ والبخاري ٨٠٩ وأبو داوود والترمذي ٢٧٣

وإلا لكانت الأعضاء ثمانية، وقال: وفيه نظر: لأنه يلزم منه أن يكتفي بالسجود على الأنف، كما يكتفي بالسجود على بعض الجبهة..... والحق: أن مثل هذا لا يعارض التصريح بذكر الجبهة، وإن أمكن أن يعتقد أنهما كعضو واحد فذاك في التسمية والعبارة، لا في الحكم الذي دل عليه الأمر] [1]. وقد تفيد الإشارة أن الجبهة والأنف ملتصقين فهما عضو واحد كما جاء عند النسائي: "ووضع يده على جبهته وأمرها على الأنف، قال: هذا واحد] [2].

وأري أن حذف لفظ " الأنف " هنا لا يعني أنها تالية للجبهة وتابعة لها في الأهمية، بل إن الإشارة إلى الأنف يعني – كما أري – أهمية السجود عليها لدرجة قد تفوق غيرها، ولذلك وضع البخاري –رحمه الله– هذا الحديث تحت عنوان " باب السجود على الأنف والطين ".

ذلك لأن السجود على الأنف أقرب إلى الذل والانكسار والخشوع من غيره، ويعلق ابن حجر –رحمه الله –**على عنوان البخاري فيقول:**

" كأن البخاري يشير إلي تأكد أمر السجود علي الأنف، بأنه لم يترك مع وجود عذر الطين الذي أثر فيه، ولا حجة فيه لمن استدل به علي جواز الاكتفاء بالأنف، لأنه في سياقه أنه سجد علي جبهته وأرنبته، فوضح انه إنما قصد بالترجمة ما قدمناه، وهو دال علي وجوب السجود عليهما، ولولا ذلك لصانهما عن لوث الطين " [3] وعليه فإن الحذف هنا لا يقلُّ درجةً عن الذكر لأن الإشارة نبهت على المحذوف، وزادته إيضاحاً فوق اللفظ.

١- فتح الباري ٢/ ٣٤٨

٢- السابق ٢/ ٣٤٨

٣- فتح الباري ٢/ ٣٤٨

ومن هذا الباب أيضاً ما رواه عبد الله بن عمر ﷺ قال (اشتكي سعد ابن عبادة شكوى له، فأتي رسول الله ﷺ يعوده، مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد ابن أبي وقاص، وعبد الله ابن مسعود، فلما دخل عليه وجده في غشيه. فقال: أقد قضـــي؟ قالوا: لا يا رســول الله: فبكي، فلما رأي القوم بكاء رســول الله ﷺ بكوا، فقال: ألا تســـمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا " وأشار إلى لسانه " أو يرحم).[١]

وأول ما يلحظ هنا: البداية بـــــ " ألا تسمعون " وهذا تمهيد لما سيقوله لأهميته حتى لا يتحرج أحد من البكاء، أو يظن أن فيه معصية. ولكن ما الفرق بين (أن الله يعذب بهذا أو يرحم) وبين (إن الله يعذب باللسان أو يرحم)؟

الفرق أن في أحد الخبرين إشارة وفي الأخر تصريح باللفظ، ولا شك أن في حذف اللفظ والاكتفاء بالإشارة التي تراها العين توكيداً للمعني، وبخاصة أن في الكلام تشـــريعاً يترتب عليه حرام وحلال، كما أن في حذف لفظ [اللســـان] تهويلاً وترهيباً من عواقبه، لأنه إما أن يرفع صــــاحبه إلى عليين، أو يهوي به إلى أســـفل ســـافلين، وهنا ترى كلام الإمام عبد القاهر قد تمثل أمامك، وذلك قوله: " وترى ترك الذكر أفصح من الذكر... "

******

١- البخاري رقم ١٣٠٤

الاختصاص بالإشارة

الاختصـــــاص في البلاغة العربية له أدواته المعروفة مثل (إلا، وإنما، والعطف بلا وبل ولكن)، ويمكن أن يضـــاف إلى ذلك الإشـــارة؛ لأنها تصـــحب اللفظ فتخصـــص جزءه، أو نوعه، أو أفضـــله، أو أدناه. ومن هذا الباب ما رواه ابن مســـعود رضي الله عنه **قال:**" أشـــار النبي ﷺ نحو اليمن **فقال:**" ألا إن الإيمان ههنا، وأن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر) [1]

فالحديث يختص أهل اليمن بعلو القدر في الإيمان وســـبقهم في ذلك غيرهم، ولقد كان الاختصـــاص بأداة بيانية واضـــحة تراها العيون، وهي الإشـــارة باليد، **يقول ابن حجر:** [قوله أشـــار رســـول الله بيده نحو اليمن فيه تعقب على من زعم أن المراد بقوله " يمان " الأنصار،

لكون أصلهم من أهل اليمن؛ لأن في إشارته إلى جهة اليمن ما يدل على المراد به أهلها حينئذٍ، لا الذين كان أصلهم منها، وسبب الثناء على أهل اليمن هو إسراعهم إلى الإيمان] [2]

وهذا يعني أن الإشـــارة أفادت خصـــوصـــية في المراد، وهو أن الفضـــل الإيماني في أهل اليمن الذين كانوا في عهد رســـول الله خاصـــة، وليس الأمر متعلقاً بمن ســـبقوا منهم، أو من جاءوا من بعدهم، ولذلك جاء في رواية " جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية " [3] فالإشارة في الحديث خصصت الوقت، وليس الأمر على إطلاقه، فالفضل إذن

١- رواه مسلم رقم ١٧٨

٢- فتح الباري ٦/ ٤٠٦

٣- رواه مسلم رقم ١٧٩

للأنصـــار الذين آووا ونصــــروا، فهم أرق أفئدة، وأهل فقه وإيمان، ولذلك كان الاعتراض على من ظن أن اللفظ على إطلاقه فقيل [أما ما ذكر من نســـبة الإيمان إلى أهل اليمن فقد صــــرفوه عن ظاهره من حيث إن مبدأ الإيمان من مكة ثم من المدينة] [1] بل غالى البعض فقال: إنه أراد بذلك مكة، ومكة من تهامة، وتهامة من أرض اليمن، أو أراد مكة والمدينة معاً... حيث جاءت الرواية بأنه ﷺ قال هذا الكلام وهو في تبوك، ومكة والمدينة حينئذٍ بينه وبين اليمن، فأشـــار إلى ناحية اليمن، وهو يريد مكة والمدينة، فقال الإيمان يمان ونســـبهما إلى اليمن لكونهما حينئذٍ من ناحية اليمن، كما قالوا الركن اليماني، وهو بمكة لكونه إلى ناحية اليمن. لكن الأحسن – كما قال أبو عبيدة: أن المراد بذلك الأنصار لأنهم يمانيون في الأصل، فنسب الإيمان إليهم لكونهم أنصاره][2]

ولعل هذا القول يفسر الجمع بين الإشارة واللفظ في رواية البخاري حيث جاء فيها: [الإيمان يمان ههنا] **فقوله:** " يمان " إشـــارة إلى أهل اليمن. **وقوله:** "ههنا" أراد بها الأنصـــار. وذلك لأن اسـم الإشـارة " هنا " يدل على القرب كما **قال ابن مالك:**

وبهنـا أو ههنـا أشـــر إلى   داني المكان وبه الكاف صـلا

أي: يشـار إلى المكان القريب بـــ " هنا " ويتقدمها هاء التنبيه فيقال: " ههنا " [3]

وعلى هذا فالحديث مدح للأوس والخزرج، فهم الأرض التي اشـــتد فيها عود الإسلام، واستوى على سوقه، وبيعتي العقبة دليل ذلك. أما ما قاله بعضهم

١- شرح النووي على مسلم ١/ ٥٧٠ دار الغد العربي

٢- السابق ١، ٥٧٠

٣- شرح ابن عقيل ص ٤٨

من صــــرف المعنى عن ظاهره، وأنه ﷺ أراد مكة، فإنه يخالف الروايات الكثيرة والصـــريحة في أنهم أهل اليمن، نحو: أتاكم أهل اليمن، وجاءكم أهل اليمن، ثم جاءت الإشارة في روايات أخرى لتؤكد هذه الأمور، وقد اختار النووي هذا الرأي، وحسنه أبو عبيدة.

ومن هذا الباب ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، **فقال:** " فيه سـاعة لا يوافقها عبد مسـلم وهو يصـلي يسـأل الله شـيئاً إلا أعطاه إياه "

وزاد قتيبة في روايته: وأشار بيده يقللها. **وفي رواية أخرى:** " وقال بيده يقللها يزهدها " [١]

وهذه الإشـارة اسـتنبط منها الصـحابة معنى القلة، كما نص على ذلك الراوي، مما يعني أنهم مصـطلحون ضـمناً على إشـارات يفهمون منها معاني خاصـة، ولذلك [جاء في رواية سـلمة بن علقمة.... ووضـع أنمله على بطن الوسطى، أو الخنصـر يزهدها... وبين أبو مسـلم الكجي أن الذي وضـع أنمله هو بشر بن المفضل رواية عن سلمة بن علقمة، وكأنه فسر الإشارة بذلك، وأنها سـاعة لطيفة تنتقل بين وسـط النهار إلى قرب آخره، وبهذا يحصـل الجمع بينه وبين قوله " يزهدها " أي: يقللها. ولمسلم من رواية محمد بن زياد عن أبي هريرة [وهي سـاعة خفيفة]. وللطبراني في الأوسـط من حديث أنس [وهي قدر هذا] يعني: قبضـة. قال ابن المنير: الإشارة لتقليلها هو للترغيب فيها، والحض عليها ليسـارة وقتها، وغزارة فضـلها، وفائدة الإبهام لهذه السـاعة بعث الداعي على

١- رواه مسلم ١٩٣٦ والبخاري ٩٣٥

الإكثار من الصلاة والدعاء، ولو بيَّن لاتكل الناس على ذلك، وتركوا ما عداها، فالعجب بعد ذلك ممن يجتهد في طلب تحديدها] [1]

ولا شك أن الاختصاص بالإشارة هنا لا يراد منه ساعة دون أخرى، ولكن يراد منه التنبيه على قلة وقت الإجابة كما فسر العلماء، حيث **قالوا**: أن هذه الإشارة تعني أنها يسيرة، أو تعني أنها ساعة خفيفة. وقيل إنها ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة. **وقيل**: عند الشروق. وقيل قبل الغروب، وكل ذلك تفسير للإشارة بالقلة؛ حتى يجتهد المسلم في كل وقت، لعله يدركها.

١- فتح الباري ٢/ ٤٨١

دلالة الإشارة على التشبيه

للتشـــبيه في البيان العربي منزلة عالية، **قال عنها الإمام عبد القاهر:** [وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين، حتى يختصر ما بين المشـــرق والمغرب، ويجمع ما بين المشـــئم والمعرق، وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شـــبهاً في الأشـــخاص الماثلة، والأشـــباح القائمة، ويُنطق لك الأخرص، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضاد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين.][1]

وظهور الإشارة في دائرة البيان، وولوجها في تصاويره الكثيرة دليل على قدرة الإشارة على حمل المعاني، وأدائها على أتم وجه، ولذا يستعان بالإشارة في الصورة التشبيهية، لأن بينهما علاقة وصلة رحم فالغرض الأول من التشبيه هو البيان والإيضـــاح، وليس هناك أقوى من الإشـــارة في إبراز المعاني في صـــوَر مشاهدة محسوسة تراها العيون، وتتلمسها الأيادي.

ومن هذا ما رواه ســـيدنا عمار بن ياســـر قال: " بعثني رســـول الله في حاجة فأجنبت، فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: " إنما كان يكفيك أن تقول بيدك هكذا " ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة، ثم مسح الشمال باليمين وظاهر كفيه ووجهه" [2] ولا شك أن صنيع سيدنا عمار إنما كان بعد سماعه **قول الله تعالى:**

﴿...فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا...﴾ [سورة المائدة:٦] لأنه لن يفعل شـيئاً دون دليل، لكن الآية لم تبين كيفية التطهر، ولا مقداره..، لذلك بالغ سيدنا عمار فعمّ الجسد بالتراب.

١- رواه البخاري ٣٤٥ ومسلم ٧٩٦ وأبو داوود ٣٢١

٢- رواه البخاري ٣٤٥ ومسلم ٧٩٦ وأبو داوود ٣٢١

وكان تعليمه من الصــورة الإشــارية التشــبيهية، فقام النبي ﷺ بتعليمه عملياً، وهو ينظر، ولو افترضنا لفظاً يقوم مقام الإشارة، لما وفّى بالبيان العملي لكيفية الضرب للأرض، وعدد المرات وما الذي يبدأ به من الأعضاء؟، وإلى أي مدى يكون المسح؟

وغير ذلك كثير، ولقد كانت الإشـــارة وافية بجميع هذه الأســـئلة، فما تركت في النفس شـيئاً، فالتعليم هنا تعليم بالمشــاهدة، فالرسـول ﷺ أمره أن يتشـــبه بأفعاله، وعليه ففي الكلام تشـــبيه. ولكن كيف نكوّن هذه الصـــورة التشبيهية؟

المشــبه هنا سـيكون تيمم سـيدنا عمار. والمشــبه به هو تيمم رسـول الله ﷺ.

ووجه الشبه هو الإتيان بأركان التيمم على الوجه الصحيح.

ولقد تم كل ذلك من خلال الإشـــارة التي دلت على المعاني الكثيرة بحركات يسـيرة، ولذلك سـكت اللسـان، وقامت اليدان لتقول بحركاتها، وتقلباتها ليرى الجميع فيحصل المراد.

ومن هذا الباب أيضـا ما رواه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه **قال:** قال رسـول الله ﷺ:" كافل اليتيم لـه أو لغيره أنـا وهو كهاتين في الجنـة" وأشـــار مالك بالسبابة والوسطى.[1]

وهنا أيضـــاً قامت الإشــارة بدور المشــبه به؛ لأنها أكمل في البيان من المشبه، ولو أردنا أن ندلل باللفظ عن هذه الصـورة لقلنا: رسول الله وكافل اليتيم متجاورين في الجنة كثيراً.

فهل ترى لهذه العبارة من الرونق والبهاء والأريحية ما تجده في قولـه: " أنا وهو كهاتين؟.

١- مسلم ٢٩٨٣

إن الإشـــارة جعلت الجميع ينظر إلى هذين الأصـــبعين ويفكر فيما فيهما من معان، كالالتصـاق، ودوام الصـحبة، ووحدة الدرجة، وشـمول النعيم، وحسـن الجوار،.... الخ.

فالإشـارة هنا زادت من عمق التشـبيه، ووضـعت له كثيرا من الأضـواء البيانيـة، وفتحـت لـه البـاب ليجمع كـل معـاني الود، والألفـة والاقتران، والوحـدة وغير ذلك.

ولا يخفى عليك أن الغـايـة من وراء كـل هـذا هو حـث المؤمنين على كفالة الأيتام، والإحســـان إليهم، واســـتنهاض الهمم حتى لا يبقى في الأمة يتيم غير مكفول.

وقد تحمل الإشـــارة معنى التمثيل الذي يأتي في أعقاب المعاني، فتزيد الصـورة أنساً وألفة، بالإضـافة إلى قيام الإشارة مقام الدليل على صـحة التشبيه، وهذا ما يفعله التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، ومن ذلك: ما رواه المســـور بن شـــداد، **قال:** قال رســـول الله صـــلى الله ﷺ: " والله ما لدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه، وأشار بالسبابة، في اليم فلينظر بم يرجع؟ [1]

إن الصـــورة التشـــبيهية قد كملت عند قوله: ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصـــبعه في اليم. ثم جاءت الحركة، حركة وضـــع الســـبابة في اليم؛ لينظر الجميع، ويستحضـر اليم وأنه جالس على شـاطئه، ثم ها هو يضـع أصـــبعه في اليم، ثم ينظر فلا يجد فيه من الماء إلا البلل.... إن هذه الإشـــارة أعطت التشبيه قوة، لأنها قامت بدور الدليل، والبرهان على صـدق الصـورة، وأن من يفعل ذلك يرجع فارغ اليد إلا من الحسرة.

أرأيت كيف تدعم الإشـــارة التشـــبيه؟، وكيف توضـــح المراد منه؟ وكيف أكسبته الأنس والألفة كما قال الإمام عبد القاهر [2].

١- مسلم ٢٨٥٨

٢- أسرار البلاغة ص ١٠١ ت / شاكر

إخراج المعنوي
في صورة المحسوس

تحدث البلاغيون عن إخراج المعنوي في صـــورة المحســـوس، وذلك في باب البيان عن طريق التشبيه، أو الاستعارة، أو التعبير بالمضارع، وغير ذلك.

لكن الإشارة كما أرى أقوى أثراً من كل ذلك لأن الإشارة لا تكتفي بإخراج المعنوي في صورة المحسوس، وإنما تقوم بتصويره وتجسيده، فيتحول الأمر إلى صور حية مشاهدة تراها العيون، ومن ثم يتفاعل معها المتلقي؛ فيرسخ المعنى في القلب رسوخاً لا مزيد عليه.

وأول ما يلقانا من هذا ما رواه عبد الله بن عمر، **قال:** كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه، **ويقول:** " رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " [1]

فجملة " يمســـح الدم عن وجهه " فهم منها المراد، لكن قيام النبي ﷺ بتجسيد هذه الحركة زادت المعنى شخوصاً؛ لأنها عمدت إلى المتلقي، ونبهت عينه إلى أن ينظر إلى المعنى وهو يتحرك أمامه. كما أن في هذه الإشـــارة بعضـاً من التخفيف والترويح عن الصحابة الذين ضـاقوا بتعذيب الكفار لهم، فكان في هذه الصورة التي حكاها النبي تأنيساً وترويحاً عنهم من شدة ما لاقوه. فالأمر كما قال ابن حجر كان [تطييباً لقلوب الصحابة] [2]

ومن هذا الباب أيضـــاً ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه **قال:** قال رســـول الله ﷺ: " إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصـــعدانها، قال: فذكر من

١- البخاري ٣٤٧٧

٢- فتح الباري ٦/ ٢٠٦

طيب ريحها، وذكر المسك، **قال، ويقول أهل السماء:** روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك، وعلى جسد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه عز وجل، **ثم يقول:** انطلقوا به إلى آخر الأجل.. **قال:** وإن الكافر إذا خرجت روحه، ذكر حماد، وذكر من نتنها، وذكر لعناً، **ويقول أهل السماء:** روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، **قال فيقال:** انطلقوا به إلى آخر الأجل.. **قال أبو هريرة:** فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه" [١]

فهذا تجسيد لهيئة من شم رائحة كريهة منتنة، حتى اضطرته إلى وضع ردائه على أنفه، مما يعني أنه استشعر هذه الرائحة، وأحس بنتنها، فأراد أن يشرك الصحابة معه في هذا الشعور، فغطى أنفه بالملاءة ليستشعروا هم الآخرون نفس الرائحة، فيكون التنفير من هذا النموذج قد وصل إلى منتهاه.

ومن هذا الباب أيضا ما رواه أبو رافع عن أبي هريرة **قال:** كان جريج يتعبد في صومعة، فجاءت أمه... قال حميد: فوصف لنا أبو رافع صفة أبي هريرة لصفة رسول الله ﷺ أمه حين دعته كيف جعلت كفها فوق حاجبها، ثم رفعت رأسها إليه تدعوه، فقالت يا جريج، أنا أمك كلمني، فصادفته يصلى، **فقال** اللهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، فرجعت ثم عادت في الثانية، **فقالت:** يا جريج أنا أمك فكلمني، **قال:** اللهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، **فقالت** اللهم إن هذا جريج، وهو ابني، وإني كلمته فأبى أن يكلمني، اللهم لاتمته حتى تريه وجوه المومسات. **قال:** ولو دعت عليه أن يفتن لفتن.. [٢]

١- مسلم ٧٠٨١

٢- مسلم ٧٠٨١

فقد جعلت كفها فوق حاجبها، ثم رفعت رأسـها إليه، **وهذا التصـوير يبين عدة معان:**

الأول: أنها وقت طلوع الشمس، واشتداد الحر.

الثانـي: أنها امرأة عجوز ضعيفة.

الثالث: أنها جاءت من بعيد، لأن هؤلاء كانوا يتخذون صوامعهم في الصحاري بعيداً عن الحضر رغبة في الخلوة.

رابعاً: أن الدافع لمجيئها دافع قوي، فلقد جاءته مرة ومرتين وكل ذلك ولم تظفر منه بالإجابة، إلا أنه لم يقدر هذه الأحوال؛ ولا شـك أن هذه الدلالات مسـتقاة من إشـارتها التي تناقلها الرواة، واحدا بعد الآخر.. وتلك لفتة لا ينبغي أن تمر دون تدبر.

أعني أن الرواة، بداية من رسـول الله ﷺنقلوا إلينا حركة أم جريج، وهي تضع يدها على حاجبها، وترفع رأسها، وكأن هذه الحركة جزء من الدلالة، ولا يمكن نقل جزء من البيان، وترك جزء آخر، فلم يكن المقصـود من النقل الإخبار عن أم دعت على ولدها، وإنما المقصـود الإخبار عن أم هذا حالها، وتلك ظروفها، ولذلك دعت على ولدها. والفرق واضح بين الأمرين.

ووصـول المعنى إلى المتلقي لابد أن يكون بالجمع بين إشـارتها ولفظها، ولو أن راويا حكى كلامها، ولم يحك إشارتها وفعلها فقد قصر في النقل، وأساء في التبليغ، **ولذلك انظر:**

حكى النبي ﷺ اللفظ والحركة.

ثم حكى أبو هريرة اللفظ والحركة.

ثم حكى أبو رافع اللفظ والحركة.

وهكذا ينبغي على كل ناقل وحاك.

ولا أبالغ إذا قلت إن كثيراً من الشعر قد ضاعت معانيه لا لشيء إلا لأن الرواة نقلوا لنا اللفظ فقط... إن شعراءنا لم يقولوا الشعر وهم ساكنون سكون الحجارة، بل قالوه وهم يشيرون بأيديهم، أو بغيرها في مواضع كثيرة، فأين هي هذه الإشارات؟

لقد ضاعت، كما ضاع أغلب الشعر. وهنا يمكن القول بأن هناك تقصيراً كبيراً من رواة الشعر في نقل الحركات والإشارات، والالتفاتات التي صاحبت اللفظ فهي ذات دلالات لا ينبغي التغافل عنها.

وأرى أن هناك بلاغة غائبة عن البيان العربي، وهي تلك البلاغة الكامنة في إشارات الفصحاء، وحركات المتكلمين الذين علكنا ألفاظهم وتركنا إشاراتهم لتضيع في الهواء.

الطباق بالإشارة

الطبـاق عنـد العلمـاء هو [الجمع بين المتضـــــادين، أي بين معنيين متقابلين في الجملة... ولو في بعض الصـــور، ســـواء كان التقابل حقيقياً، أو اعتبارياً] [1]

وعلى هذا يمكن اعتبار بعض مقامات الإشـــارة دالة على هذا الطباق، ومثال ذلك ما ورد في حجة الوداع عن ســـيدنا جابر بن عبد الله، عن رســـول الله ﷺ، أنه قال: ... وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟

قالوا نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: " اللهم اشهد اللهم اشهد.. ثلاثاً " [2]

فرفع اليد إلى الســـماء، ثم نكتها إلى الناس صـــورة تقابلية لها دلالة ولا شــك. وهذه الإشــارة المتقابلة جاءت في أعقاب قولهم: نشــهد أنك قد بلغت وأديت، ونصحت.

فهل تفيد الإشـارة أن السماء تشـهد كذلك كما تشـهدون؟ أم أن المقصـود الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى بأن يسجل عليهم شهاداتهم؟ أم أن الإشارة تعني أن الملائكة في السماء، وسكان الأرض، والجميع يشهد، فاللهم فاشهد؟

إن هذه المعاني كلها قد تكون مرادة، لكن الشـــاهد هو هذه الحركة باليد أو بالأصـــبع، مرة إلى الســـماء، وأخرى إلى الناس، وأن الغرض منها تأكيد الشهادة، أو الإلحاح على الله تعالى بالشهادة عليهم.

ومن هذا الباب أيضـاً ما روته السيدة عائشـة رضـى الله عنها، أن رسـول الله ﷺ كان إذا اشـــتكى الإنســـان الشـــيء منه، أو كانت به قرحة أو جرح،

١- مختصر السعد ٤/ ٢٨٦

٢- فتح الباري ١٠ / ٢١٩

قال: بإصبعه هكذا.. ووضع سفيان سبابته بالأرض **ثم رفعها:** " باسم الله تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يشفي به سقيمنا، بإذن ربنا" [1]

وهذه الحركة عكس حركة الحديث السابق، فهنا وضع أصبعه على الأرض ثم رفعه إلى السماء، وهناك أشار أولاً إلى السماء ثم أشار إلى الناس.

وكلا الحديثين فيه دعاء:

الأول: دعاء بأن يشهد الله تعالى عليهم لاعترافهم أنه بلغ الرسالة.

والآخر: دعاء بأن يشفي الله تعالى المريض.

وهنا أتساءل: هل هناك علاقة بين الإشارات إلى السماء والأرض وبين الدعاء؟ ربما...

يقول القرطبي: [وأما وضع الأصبع بالأرض فلعلّه لخاصية في ذلك، أو لحكمة إخفاء آثار القدرة بمباشرة الأسباب المعتادة.... **وقيل:** كأنه تضرع **بلسان الحال:** إنك اخترعت الأصل الأول من التراب، ثم أبدعته منه من ماء مهين، فهين عليك أن تشفي من كانت هذه نشأته

وقد يفهم من هذه الإشارة المتقابلة معنى التوسل، **أعني:** توسل العبد الذي خلق من تراب الأرض إلى الله تعالى بقبول دعائه. لكن اللافت للنظر هو أنه أسند فعل القول إلى اليد.

واسمعه وهو يقول: " فقال بيده " فالدعاء هنا ليس من اللسان وإنما من اليدين، فالأيدي تدعو، وتتوسل، وتطلب، كما أن اللسان يدعو، ويتوسل، ويطلب. وأنا هنا لا أجزم بهذه الدلالات، وإنما أحاول فهم الإشارة، وعلاقتها باللفظ.

١- السابق ١٠ ٢١٩

الفصل الثالث:

الوسائل البيانية وبلاغتها

الفصل الثالث

الوسائل البيانية وبلاغتها

توطئة:

ثبت مما سبق أن من أهم القضايا التي تشغل البلاغة العربية إيصال المعنى إلى المتلقي، في هيئة لا لبس فيها، ولا خفاء، وإزالة كل ما يعترض المعنى من عقبات قد تُخفي بعضًا من المقصود، أو تحجبه حجبا كاملا عن المتلقي، وكلما كان المعنى واضحا كان المتكلم أفصح. والذي لا شك فيه أن المعنى لا يصل إلى السامع عن طريق اللفظ وحده، وإنما تساعده أمور أخرى تتآزر معه في حمل المراد، وهي ما تسمى بالوسائل الإيضاحية، التي يستعين بها المتكلم من حركة وإيماء، أو رسم وتوضيح، ومن هنا بزّ بعض المتكلمين بعضاً، وعلا بعضهم فوق بعض، ومن هنا أيضا يفترق الأسلوب المقروء عن الأسلوب الذي يحمله صاحبه بنفسه ويلقيه على الحاضرين..... فيقف حيث أراد، ويصل حيث أراد، ويحرك يده أو رأسه، أو يشير بيده حيث أراد معنى خاصا، ولعلك تدرك هذا الفرق الكبير بين الأمرين حين تقرأ نصا من النصوص، وحين تسمعه من صاحبه يجسده لك تجسيدا، ويصوره لك تصويرا، ومن هنا كان لابد من إبراز دور هذه الوسائل في حمل المعاني وبلاغتها في تجلية المراد، وتوكيده حتى لا يبقى في نفس المتلقي شبهة، وتثور هنا عدة أسئلة، **منها:** هل ينقص المعنى عند حجب هذه الوسائل؟

وهل لجوء المتكلم إليها لنقص عنده، أم لعجز في اللغة، أم لسبب آخر؟

وما هذه الوسائل، وهل يمكن الابتكار فيها أم أنها محدودة؟

وما علاقة كل ذلك بالبلاغة العربية؟

تلك مثيرات ودوافع في عالم يمتلئ بالجديد، ويكاد اللفظ فيه يتوارى خلف الصورة التي ملأت أركان الدنيا، واستحوذت على العقول فلا يكاد أحد يستغني عن هذه الوسائل وهذه التقنية التي لا تزال تقذف إلينا كل صباح بجديد، مما يشعرك وأنت تتكلم عن اللفظ وحده بأنك قادم من زمن آخر.

ولكي يكون الكلام ذا قيمة عالية اخترت لهذا ميدان الوحي، وهو حديث المعصوم – ﷺ– فلقد **قال الله تعالى:**

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة النحل:٦٤]

فكان النظر في حديث النبي نظراً في طبيعة البيان ومقوماته، وطرائقه التي سلكها ليوصل مراد الله تعالى إلى عباده، ولقد حاولت أن أنظر في الشعر القديم، لكن المؤسف أن الرواة نقلوا إلينا الألفاظ، وضنوا علينا بما يصاحبها من وسائل أنا على يقين من أن الشعراء أودعوها قصائدهم أثناء إلقائها، لكن حين نُقلت هذه القصائد ذهب كل شيء فيها ولم يبق إلا اللفظ.

ولقد اخترت الحديث الشريف ليكون ميدانا للنظر في هذا الفصل أيضا، لعدة اعتبارات، **منها:** أن الغاية من دراسة البلاغة، وتعليمها للناشئة هي حسن تدبر بيان الوحي – قرآنا وسنة – والذي يؤدي بدوره إلى حسن العمل، ورضى الله تعالى.

تلك هي الغاية التي من أجلها ندور في فلك البلاغة تعلما وتعليما، وأمر آخر: وهو أن رواة الحديث – جزاهم الله عن هذه الأمة خيرا – لم يتركوا شـاردة ولا واردة من بيان النبي ﷺ إلا نقلوها إلينا، مع اللفظ، فنقلوا إشاراته، وأحواله، وحركاته، وسـكناته التي صـاحبت ألفاظه. وكأنها حجج وبراهين على صـدق اللفظ، أو زينة وتحبير للمعاني، وهي قبل ذلك وبعده من لوازم التعبير عن خفايا الصـدور، وهذا ميدان واسـع يحتاج إلى تنقيب عن البلاغة المصـاحبة للفظ في بيانه ﷺ.

مفهوم الوسيلة التعليمية

حين يتحدث المتخصصـــــصـــــون عن الوســـائل التعليمية إنما يتحدثون عن الوســـائل البيانية، ولا يعنينا هنا كون المتلقي تلميذا أو غيره، فنحن نقف الآن أمام كلام محمّل بوســائل إيضــاحية ليســت من قبيل اللفظ، بل هي أمور خارجة عن الكلام، وغاية المتحدث أو الملقي هو إيصـــــال مراده إلى الآخرين وصـولا كاملا، لذلك يستعين بكل ما يستطيع من وسائل إيضـاحية تكشف عن مكنون القلب، وتفصح عن خبيء النفس.

والوســيلة في اصــطلاح علماء التربية هي: (كل ما يســتخدم لتوضــيح المعاني والأفكار، أو التدريب على المهارات، أو التعويد على العادات الصالحة، أو تنمية الاتجاهات، وغرس القيم المرغوب فيها، دون أن يعتمد على الألفاظ وحدها، وهي باختصـــار جميع الوســائط التي يســتخدمها المعلم في الموقف التعليمي لتوصـــيل الحقائق، أو الأفكار، أو المعاني لجعل المراد أكثر إثارة وتشويقا، ولجعل الخبرة التربوية خبرة حية، وهادفة، ومباشرة في الوقت نفسه.)[1]

١- الوســـائل التعليمية للدكتور مســـعد محمد زياد مقالة منشـــورة على موقع اللغة العربية لغة القرآن على الانترنت.

علاقة هذه الوسائل ببلاغة العربية ؟

هنا يثور اعتراض حول علاقة ذلك بالكلام، فمن المعلوم سلفا أن بلاغتنا بلاغة اللفظ، وكل ما في بلاغتنا لا يبعد عن اللســـان، وما ينتجه من حروف وكلمات، وجمل وتراكيب... إلخ وهذا صحيح، لكنك إن أدمت النظر لوجدت أن هذه الوسائل لا تبعد عن بلاغتنا العربية، فهي أحوال مصاحبة للفظ، ترشد إلى غايته، وتفصح عن غامضه، فهي جزء من سياق الكلام ومقامه.

والبلاغة العربية كما تتناول بلاغة اللفظ تتناول في الوقت نفســه بلاغة الســـياق والمقام، فهما بمثابة المحضـــن الذي ينبت فيه الكلام، والحق الذي لا أشــك فيه أن اللغة العربية ليســت لغة مسـموعة فقط، بل هي لغة مشــاهدة أيضا، وهي لغة ملموسة، بل هي لغة تدرك من خلال الحواس الخمسة.

ومن هنا فإن هذه اللغة لا تعيش وحدها، بل لا بد لها من بيئة تحيا فيها، وتتفاعل معها، وتأخذ منها وتعطيها، فطبقة الصــوت الذي تؤدى به اللغة يعد أحد البيئات، وهيئة المتكلم، وحركة عينيه، وإشـــارات يديه، كل ذلك بيئة تحيا فيها اللغة. ثم ما يسـتخدمه المتكلم من أدوات، ووسـائل يسـتعين بها على توصـــيل أغراضـــه إلى الســـامعين، كل هذه بيئة تنمو فيها اللغة، وتنهض، وتزدهر.

وكلما كان النص محاطا ببيئة غنية وافرة، مترعة بالوسـائل الكاشـفة عن المراد، والمفصـحة عن المقصـود، كان أوفر حظا من النص الذي أرسـل عاريا من وسائل الإفصـاح، وإذا كانت الفصـاحة هي الظهور والوضـوح فلماذا نربطها بالكلام، وهو أحد الوسائل الحاملة للمراد؟!!!

لماذا لا تكون الفصاحة شاملة كل الطرق الحاملة للغرض؟

فالبيان هو كل ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير، ورحم الله العقاد، **فلقد قال:** (الفصاحة صفة تجتمع للكلام، ولهيئة النطق بالكلام، ولموضوع الكلام.. فيكون الكلام فصيحا وهيئة النطق به غير فصيحة، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب، فكان أعرب العرب كما قال عليه السلام: " أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر"فله من اللسان العربي أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة..... وهذه هي فصاحة الكلام) [1]

لقد أزاح العقاد الباب بعض الشيء حين جعل الفصاحة للكلام ولهيئة الكلام، ولموضوع الكلام، فزاد على ما قرره البلاغيون فصاحة هيئة الكلام، وفصاحة موضوع الكلام. فالفصاحة لا ينبغي أن تقتصر على اللفظ المنطوق -كلاما أو متكلما - بل ينبغي أن تشمل اللفظ، وما يصاحبه من وسائل مهمتها في الحقيقة الإفصاح عن المعنى، والكشف عن المراد، والبيان عما في الضمائر، ولذلك يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره **لقول الله تعالى:**

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [سورة الرحمن:٤]

إنها (خبر ثالث تضمن الاعتبار بنعمة الإبانة عن المراد والامتنان بها بعد الامتنان بنعمة الإيجاد، أي علّم جنس الإنسان أن يُبين عما في نفسه ليفيده غيره ويستفيد هو. **والبيان:** الإعراب عما في الضمير من المقاصد والأغراض وهو النطق وبه تميز الإنسان عن بقية أنواع الحيوان فهو من أعظم النعم.

١- موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية المجلد الثاني العبقريات عبقرية محمد صـ ٢٦دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى ١٩٧١ م.

وأما البيان بغير النطق من إشـــارة وإيماء ولمح النظر فهو أيضـــاً من مميزات الإنسان وإن كان دون بيان النطق..) [1]

فهنـاك بيـان بغير النطق يصـــاحـب البيـان بـالنطق، يقول الجـاحظ (اعلم حفظك الله أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية وأسـماء المعاني مقصـورة معدودة، ومحصـلـة محدودة، وجميع أصـــناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمســـة أشـــياء، لا تنقص ولا تزيد، أولها: اللفظ، ثم الاشـــارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال، وتسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات) [2]

والنقاد قديما لم يغفلوا عن هذه الوســائل المصـــاحبة للفظ (قال أحمد بن محمد بن عبد ربه صـــاحب العقد الفريد: البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشـــارة والدلالـة، ولكل وجـه منهـا حظ من البلاغـة والبيـان، وموضع لا يجوز فيه غيره، ورب إشارة أبلغ من لفظ.

وقال رجل للعتابي: ما البلاغة؟

قال: كل ما أبلغك حاجتك وأفهمك معناه بلا إعادة ولا حبسـة ولا اسـتعانة فهو بليغ، **قالوا:** قد فهمنا الإعادة والحبسة، فما معنى الاستعانة؟

---

١ – التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – دار سحنون تونس ١٩٨٧ هـ ١٤ / ٢٧٥

٢- السابق ١ / ٥٥

قال: أن يقول عند مقاطع الكلام: اســـمع مني، وافهم عني، أو يمســـح عثنونه، أو يفتل أصـابعه، أو يكثر التفاته، أو يسـعل من غير سـعلة، أو ينبهر في كلامه) [1]

فهل استوعب العلم هذه الخمسة؟

الواقع أننا صــببنا جل اهتمامنا على اللفظ، وتركنا أربعة وســائل حاملة للمعاني، تشارك اللفظ تارة وتستقل أخرى، وهي في جميع الحالات شريكة للفظ ولها من القدر ما يستحق النظر في بلاغتها.

وعليه.... فالبحث حين يتعرض للوســائل المصــاحبة للفظ من حركات الجســد، أو الاســتعانة بالوســائل البيانية الأخرى لا يبعد عن ميدان البلاغة، ولا يخرج من بابها، بل هو بحث في صـــميم البلاغة، لأنه ينظر في الأحوال المصاحبة للفظ، الكاشفة عن المراد منه، وأثر هذه الأحوال في وضوح المعاني، وتوكيدها، وقدرة هذه الأحوال على توجيه المتلقي إلى خصـــائص قد لا يلتفت إليها إن عُرِّي الكلام من هذه الأحوال.

١- نهاية الأرب ت / عبد التواب شــرف ٤ / ٢٢٥٦ وهذا الكلام رغم ما فيه من صــواب إلا أن فيه أخطاء، لأن الإعادة لها سياقها ومقامها، والاستعانة باليد أو العين أو غيرهما له سياقه الذي يحسن فيه، وهو وارد في الكلام العالي، وقول المتكلم اسمع مني، أو افهم عني أيضـا لها مقامها، وذلك إن وجد المتكلم إعراضـا من المخاطب، أو نحو ذلك .

المبحث الأول

تصوير المعنى بأعضاء الجسد

تصوير المعنى باليد:

اشتراك الجسد في رسم المعاني، شيء في الفطرة الأولى، فالمتكلم لشدة تمكن المعنى لديه يُظهر الكلام من خلال حركات الجسم، فتجد الألفاظ والجمل وقد لبست هيئة خاصة، وظهرت مرئية على أعضاء الجسد لتنقل إلى السامع ما أراد اللسان توصيله، لكن بعدت عليه الشقة، فتجد المتكلم تارة يشير، وتارة يلوح، وتارة، يبتسم...إلخ وهو يريد من وراء كل ذلك دلالات ومعان، وحين يعجز اللسان عن حمل المعاني لدى البعض يقوم الجسد بالنيابة عنه، فكأن حركات الجسد هي النائب عن اللسان، لكن البحث ليس في معرض عجز اللسان، بل في معرض اشتراك أعضاء الجسد مع اللسان في توصيل المراد، ولكي يتضح ذلك ندلف سريعا إلى تحليل النموذج الأول، ومن أبرز النماذج على ذلك الحديث الذي رواه سيدنا أبو موسى الأشعري عَنْ النَّبِيِّ – ﷺ– **قَالَ** : (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ) [1]

إن هذه الجملة التشبيهية التي تصور علاقة المؤمن بأخيه حوت كل أركان التشبيه (من مشبه، ومشبه به، ووجه شبه، وأداة) **وجملة:** " يشد بعضه بعضا " هي وجه الشبه، وهذا الوجه لم يقتصر فيه على اللفظ المنطوق، بل تحركت الأصابع لترسم للمشاهد هذه العلاقة القوية بين المؤمن وأخيه، وهذا

١- صحيح البخاري الجامع الصحيح المختصر لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي ت مصطفي ديب البغاط / الثالثة ١٤٠٧ هـ دار ابن كثير بيروت كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع رقم ٤٥٩.

العون المتواصـــل الذي لا ينقطع أبدا، فالمقصـــود هنا أن يكون المؤمن عونا ونصــيرا لأخيه، فما يحدث لأحدهما يحدث للآخر بلا فرق، فالسـامع يدرك من هذه الحركة كل ما يتصوره من تماسك البنيان، وقوته، واتحاد عناصره.

يقول ابن حجر – رحمه الله – (وشبك بين أصابعه) دليل على الاختلاط والامتزاج، كالشــيء الواحد لا على التمثيل والتنظير....... وفي رواية يتحدث فيها رسـول الله – ﷺ– عن ترابط بني هاشـم، وبني المطلب، **يقول:** إنا وبنو المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إســلام، وإنما نحن وهم شـــيء واحد، وشــبك النبي بين أصابعه) [1]

فالتشـابك بين الأصـابع دل على هذه المعاني المنطوقة (نحن وهم شـيء واحد) ليس على سبيل التنظير، كما وضح ابن حجر، وإنما على سبيل الحقيقة.

كما تلحظ هذا الإيجاز في إدراك المعنى، وتقليل الجهد، واختصـار الوقت فلو أنك اقتصــرت على الصــورة التشــبيهية: المؤمن للمؤمن كالبنيان، وتركت

١- فتح الباري شـــرح صـــحيح البخاري لابن حجر العســقلاني ٦ / ٢٥٢ دار المعرفة بيروت ١٣٧٩ وســبب ورود هذا النص ما ذكره الشــيخ ســيد ســابق في حكم أخذ بني المطلب من الصــدقة، **يقول:** (واختلف العلماء في بني المطلب، فذهب الشـافعي: إلى أنه ليس لهم الاخذ من الزكاة، مثل بني هاشـم. لما رواه الشـافعي، وأحمد، والبخاري، عن جبير بن مطعم قال: لما كان يوم خيبر، وضـع النبي صـلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب، وترك بني نوفل، وبني عبد شمس، فأتيت أنا، وعثمان ابن عفان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم، لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم، فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا، وقرابتنا واحدة. فقال النبي صـلى الله عليه وسـلم " إنا وبني المطب لا نفترق في جاهلية ولا إسـلام، وإنما نحن وهم شـئ واحد، وشبك بين أصابعه. قال ابن حزم: فصح أنه لا يجوز أن يفرق بين حكمهم، في شئ أصلا، لانهم شئ واحد بنص كلامه، عليه الصـلاة والسلام، فصـح أنهم آل محمد، وإذ هم آل محمد، فالصدقة عليهم حرام) فقه السنة للشيخ سيد سابق ١ / ٣٩٩

العقل يتصور هذا الاتحاد، لأخذ العقل فترة من الزمن حتى يستحضر البنيان، ولبناته، وملاطه، وقوة تماسكه.

لكن هذه الحركة عَبَرَت بالمتلقي هذه المراحل وألقت إليه هذه المعاني في صورة مرئية، جسدت له المقصود في أسرع وقت، ومن المعلوم أن إدراك المعنى من خلال رسمه متحركا، يكون أسرع من تصوره من خلال الألفاظ وحدها، كما أن الحركة تثير اهتمام وانتباه السامعين، وتنمي فيهم دقة الملاحظة، وتصور مدى الاتحاد بين المؤمن وأخيه.

زد على ذلك أن الصورة هنا يستطيع كل إنسان مشاهدتها، وتجربة قوتها، وتماسك عناصرها، فمادة الصورة هنا هي الأصابع، وكأن هناك قصدًا إلى ممارسة كل إنسان لهذه التجربة، حتى يتيقن من قوة اللحمة بين المسلم وأخيه، وبذلك يصل المعنى إلى القلب مصحوبا بهذا المشهد فيستقر فيه المعنى العقلي والمعني الحسي معا، وهذا من أقوى المؤكدات.

ومن نماذج تصوير المعني باليد:

ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال (يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ويكثر الهرْج).

قيل يا رسول الله وما الهرج؟

فقال: هكذا بيده فحرفها كأنه يريد القتل " [1]

١- صحيح البخاري الجامع الصحيح المختصر لمحمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري الجعفي ـ مصطفي ديب البغاط / الثالثة ١٤٠٧ هـ دار ابن كثير بيروت

وفي رواية: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : يُقْبَضُ الْعِلْمُ وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، يَعْنِي الْقَتْل.

وفي رواية أخرى، قيل يا رسول الله: وما الهرج؟ **فقال:** هكذا، بيده، فحرفها، كأنه يريد القتل ") [1]

وهذا الحديث روي بروايات كثيرة يُفسّر فيها "الهرج" بلفظ القتل نصاً **فيقال:** "والهرج القتل".... وفي روايات أخرى يُسأل رسولُ الله ﷺ عن الهرج ما هو؟ فيجيب: القتل، أو يجيب بتكرار اللفظة فيقول: القتل القتل.

وفي هذا الحديث تدور عدة أسئلة، منها: وجه اختيار لفظ لا يعرفه الكثيرون؟

ومنها: دور الحركة في الإفصاح عن المراد؟

ولفظة الهرج – بسكون الراء – (تدلُّ على اختلاطٍ وتخليط، منه هَرَّجَ الرَّجُل في حَدِيثه: خَلَّط، ويقاس على هذا، فيقال لِلْقَتْل هَرْج، بسكون الراء) [2]

يقول ابن حجر: (قوله: "فقال هكذا بيده" هو من إطلاق القول على الفعل، كأن الراوي بين أن الإيماء كان محرفا، قوله " كأنه يريد القتل " كأن ذلك فهم من تحريف اليد وحركتها كالضارب... وعن أبي عاصم عن حنظلة، **قال في آخره:** وأرانا أبو عاصم، كأنه يضرب عنق الإنسان... **وقيل:** الهرج: القتل بلسان الحبشة، ونسب ذلك إلى سيدنا أبي موسى الأشعري)[3] وأصل الهرج في اللغة العربية الاختلاط يقال: هرج الناس: اختلطوا واختلفوا، وهرج

١- مسند أحمد تحقيق الأرناؤوط ٢ / ٢٦١ رقم ١٠٧٩٨ وقال شعيب الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين

٢- مقاييس اللغة لابن فارس (هرج) ٦ / ٢٩ المكتبة العلمية بيروت لبنان ١٩٨٨ ط الثالثة

٣- فتح الباري ١ / ١٨٢

القوم في الحديث: إذا كثروا وخلطوا... وأخطأ من قال الهرج: القتل بلسان الحبشة، فهي عربية صحيحة، ووجه الخطأ أنها لا تستعمل في اللغة العربية بمعنى القتل إلا على طريق المجاز، لكون الاختلاط مع الاختلاف يفضي كثيرا إلى القتل وكثيرا ما يسمى الشيء باسم ما يؤول إليه، واستعمالها في القتل بطريق الحقيقة هو بلسان الحبش.

وكيف يُدعى على مثل أبي موسى الأشعري الوهم في تفسير لفظة لغوية بل الصواب معه، واستعمال العرب الهرج بمعنى القتل لا يمنع كونها لغة الحبشة وان ورد استعمالها في الاختلاط والاختلاف) [1]

وكلام الإمام ابن حجر في أن الاختلاط مع الاختلاف يفضي كثيرا إلى القتل يجيب عن السؤال الأول، فلو قيل ويكثر القتل، لظن السامعون أن القتل هنا أثناء المعارك، والحروب، لكن النبي أراد أن القتل يكثر في غير الحروب، ومبعثه الاختلاط، والاختلافات بين الناس، فاختار لفظة تجمع بين الاختلاط والاختلاف الباعث على القتل، وهي الهرج.

أما دلالة الحركة فهي تعبر تعبيرا صادقا عن الرسالة التي أراد رسول الله توصيلها إلى أصحابه، وهي تجسيد عملية القتل، ورسمها أمام العيون، لتستحضر النفوس حالة الفزع والقلق والاضطراب، وهذا الشعور لا ترسمه الكلمات كما ترسمه الصورة، ولا تفصح عنه الألفاظ كما تفصح عنه الحركة، لذلك عمد رسول الله ﷺ إلى رسم مشهد القتل ليصاحب الألفاظ الدالة على الفوضى، حيث يقبض العلم، وتكثر الفتن، ويشيع القتل.

١- السابق ١٣ / ١٨

ومن نماذج تصـوير المعنى بحركة اليد ما رواه كعب ابن مالك (أنه كان له على عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي دين، فلقيه، فلزمه، فتكلما حتى ارتفعت أصـواتهما فمر بهما النبي – ﷺ – فقال: **يا كعب! وأشـار بيده، كأنه يقول: النصف.... فأخذ نصف ما عليه وترك نصفا)** [1]

ولعلك تلحظ في إيثار الحركة هنا على اللفظ مراعاة لحال المدين، والبعد عن اللفظ الذي يؤلمه، إذا قال ضع عنه النصف، كما تلحظ هذا الإيجاز في اشتمال الحركة الصغيرة على جملة كاملة، وهي " ضع عنه نصف الدين " وهو ما عقله كعب، وبادر بتنفيذه.

إن الحركة تلخص المعنى، وتسـرع به، وتحمل من المؤكدات ما يطول اللفظ في حصره، وتبعث في المتلقي نشاطا لا تراه في اللفظ، وتشرك أكثر من حاسـة في حمل المراد إلى القلب، وتبتعد بالمعنى عن الفهم الخاطئ، لأنها تجسده أمام العيون، وما وجدنا حركة من رسول الله – ﷺ – إلا وتبعها الفهم السـريع من صـحابته – رضـوان الله عليهم جميعا، عكس اللفظ، فإن التأويل والتفسير يغلب عليه، وحمله على أكثر من معنى يكاد يعصف بالمراد، وراجع معي هذه الحركات (أشـار بيده، غمز بحاجبه، رمز بشـفته، لمع بثوبه، ألاح بكمه)[2] .

---

١ – صحيح البخاري ٨ / ٢٧٦

٢– راجع فقه اللغة للثعالبي ١ / ٤٠ دار الكتب المصرية ١٩٧٨ م .. وقوله: أشار بيده ... إلخ كل ذلك تقسيم للإشارات، وأنواعها، وجاء في حديث كعب في متن الصفحة ووأومأ برأسه كما في حديث السيدة عائشة عن السـواك يوم احتضـاره صـلى الله عليه وسـلم حين كان السـواك مع أخيها تقول: فقلت آخذه لك فأومأ برأسه أن نعم فتناولته فأدخلته في فيه فاشتد فتناولته فقلت ألينه لك فأومأ برأسه أن نعم)) فتح الباري ٨ / ١٣٩

والعرب تفهم هذه الحركات وتصنفها وتتفاهم بها وتصحبها مع اللفظ تارة، وتستقل بها في الدلالة تارة أخرى، وهذه الحركات جزء أصيل في البيان عن المعاني، وهي في حاجة إلى النظر في أصولها، وقواعدها، وليس الحديث هنا عن لغة الصم والبكم، وإنما الحديث هنا عن حركات ظلت في ركاب اللفظ لم تنفك عنه احتاج السياق إليها، فأكملت جوانب خافية في المعنى، أو أكدت، أو أظهرت، أو أغلقت الباب أمام فهم خاطئ أو معنى غير مراد، ومع كل هذا ترى البلاغة العربية مُعرضة عن كل شيء إلا عن اللفظ، وكأنه ألقي في الهواء، أو وجد على قارعة الطريق، فزادت التخريجات، والتفسيرات، حتى ترى التركيب الواحد يشتط فيه إلى حد بعيد، ومن هنا كانت هذه الحركات والأفعال من الضرورة بمكان، يقول ابن تيمية – رحمه الله – (والإخبار تارة يكون بالقول، وتارة يكون بالعمل، كما يعلم الرجل غيره بالإشارة بيده ورأسه وعينه وغير ذلك، وإن لم يتقدم بينهما مواضعة، لكن يعلم قصده ضرورة، مثل أن يسأله عن شيء، هل كان؟ فيرفع رأسه، أو يخفضه، أو يشير بيده، أو يكون قائما، فيشير اليه: اجلس، أو قاعدا مطلوبا فيشير اليه: أن اهرب، فقد جاء عدوك، أو نحو ذلك من الإشارات التي هي أعمال بالأعضاء، وهي تدل دلالة ضرورية تعلم من قصد الدال، كما يدل القول، وقد تكون أقوى من دلالة القول، لكن دلالة القول أعم وأوسع، فإنه يدل على الأمور الغائبة، وعلى الأمور المعضلة، وهذه الأدلة العيانية هي أقوى من وجه، ولكن ليس فيها من السعة للمعاني الكثيرة ما في الاقوال) [1]

١- كتاب النبوات لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبي العباس، صـ ٢٠٢ المطبعة السلفية القاهرة ١٣٨٦هـ

وانظر معي مثلا إلى الغســـل من الجنــابــة فــالعلمــاء يقولون:
(فرض الغسـل شــيء واحد، وهو تعميم الجسـد بالماء، ويدخل في الجسـد الفم والأنف، فإنه يجب غسلهما من الداخل كما يجب غسلهما في الوضوء، والشعر الموجود على البدن يجب غسله ظاهرا وباطنا، بحيث يدخل الماء إلى داخله**)** [1]
وهذا يسـتدعي من البعض المبالغة في تعميم الجسـد بالماء، والوصـول إلى حد الإســراف، لكن يأتي حديث عملي يصــور هذا الفعل، والحديث يرويه ســيدنا جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا عِنْدَ رَسُـولِ اللَّهِ الْغُسْـلَ مِنْ الْجَنَابَةِ فَقَالَ رَسُـولُ اللَّهِ (أَمَّا أَنَا فَأُفِيضُ عَلَى رَأْسِي ثَلاثًا وَأَشَارَ بِيَدَيْهِ كِلْتَيْهِمَا) [2]

وهذا الحديث وأضرابه من الأحاديث الكاشفة عن تعليم الغسل أو الوضوء أو التيمم تجدها كلها قائمة على التصـوير بالحركة، فهي تمثل بيانا على المُعَلِّم – كما يقول جنود الجيش، فلا يعقل أن تعلم أتباعك من خلال الكلام شـــيئا ســـيفعلونه بالحركات، بل الأولى أن يروا ذلك عيانا، وهذا ما فعله المعصـــوم – ﷺ – فحركة إفاضة الماء على الجسد باليدين ألجمت كل مبالغ في الغسل، وكل مسرف في الماء، بحجة أن الماء لم يصل إلى الأعضاء كلها كذلك الحال في تعليم الوضوء.

وأخذ الصـــحابة ذلك من خلال الأفعال، فلقد روى الإمام أحمد كيفية وضـــوء الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –، **فقال:** حدثنا عبد خيرٍ **قال:** (جلس عليٌ بن أبي طالب بعد ما صـــلى الفجر في الرحبة، ثم قال لغلامه

١- الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري ١ / ٩١

٢- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث كتاب الطهارة باب في الغسل من الجنابة / تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الفكر، مع تعليقات الحوت

ائتني بطهور فاتاه الغلام بإناء فيه ماء وطست، **قال عبد خير:** ونحن جلوس ننظر إليه، فأخذ بيمينه الإناء، فأكفأه على يده اليسرى، ثم غسل كفيه، ثم أخذ بيده اليمنى الإناء، فافرغ على يده اليسرى، ثم غسل كفيه، فعله ثلاث مرار، قال عبد خير: كل ذلك لا يدخل يده في الإناء، حتى يغسلها ثلاث مرات، ثم أدخل يده اليمنى في الإناء، فمضمض واستنشق ونثر بيده اليسرى، فعل ذلك ثلاث مرات، ثم أدخل يده اليمنى في الإناء، فغسل وجهه ثلاث مرات، ثم غسل يده اليمنى ثلاث مرات إلى المرفق، ثم غسل يده اليسرى ثلاث مرات إلى المرفق، ثم أدخل يده اليمنى في الإناء حتى غمرها الماء، ثم رفعها بما حملت من الماء، ثم مسحها بيده اليسرى، ثم مسح رأسه بيديه كلتيهما مره، ثم صب بيده اليمنى ثلاث مرات على قدمه اليمنى، ثم غسلها بيده اليسرى، ثم صب بيده اليمنى على قدمه اليسرى، ثم غسلها بيده اليسرى ثلاث مرات، ثم أدخل يده اليمنى فغرف بكفه فشرب، ثم قال هذا طهور نبي الله ﷺ، فمن أحب أن ينظر إلى طهور نبي الله ﷺ، فهذا طهوره) [1]

وفي التيمم روي البخاري حديث عمار بن ياسر، **وفيه يقول:** (بعثني رسول الله في حاجة، فأجنبت، فلم أجد الماء، فتمرغت في الصعيد، كما تمرغ الدابة، فذكرت ذلك للنبي -ﷺ **فقال:** (إنما يكفيك أن تصنع هكذا) فضرب بكفه ضربة على الأرض ثم نفضها ثم مسح بها ظهر كفه بشماله أو ظهر شماله بكفه ثم مسح بها وجهه) [2]

فهذه أمور لا يُدل عنها باللفظ وحده، بل لا بد من استخدام الصورة، والحركة، إذ لا مجال لتأول هنا، أو اجتهاد، فحركة اليد، أو حركة الجسد عموما

١- مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ / ١٣٥

٢- صحيح البخاري ١/ ١٣٣

تبعث في النفس طمأنينة، وأريحية إلى اكتمال الأمر، وخروجه في أصح صورة. وهذا، وإن كنت واجده في الطهارة من الحدث الأكبر أو الأصغر، فإنك واجده في سياق آخر حيث تحتاج النفس إلى ما يطمأنها إلى صحة عبادتها، ومن ذلك ما رواه ابن عباس قال: ما سئل رسول الله – ﷺ– عمن قدم شيئا قبل شيء إلا يلقي بيديه كلتيهما" [1] أي: يرمي بهما، مشيرا بهما إلى أنه: لا حرج... لاحظ هنا دور اليد في التعبير عن رفع الحرج، وهذا الدور لا تبلغ الكلمات مبلغه، إنه دور تستحضره النفوس كلما تذكرت تقديمها أو تأخيرها، فتهدأ وتقر. ولا يمكن لأحد أن يدعي أن حركة اليد هنا أو اليدين، أو الرأس، أو العين، أو الجسد عموما لا بلاغة فيها، أو أنها زائدة عن حد المراد، أو يمكن الاكتفاء باللفظ عنها. إن حركة المعاني في بعض السياقات لا يوفيها اللفظ حقها، ومهما بلغ اللفظ مبلغة، يظل للحركة دورها في تجلية كوامن قد لا ينتبه إليها اللفظ، وحين تقرأ **قول الله تعالى في سورة يوسف:**﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْعَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ [سورة يوسف:٧١] تشعر أن جملة "وَأَقْبَلُواْعَلَيْهِم" تمثل دليلا متحركا على براءتهم، فالسارق حين يُنادى عليه، لا يُقبل، بل يفر. لذلك جسدت هذه الحركة الدليل الدامغ على براءتهم، وأثبتها القرآن الكريم، لتتلى على مر الدهور، لتكون مفتاحا لكل من يتدبر القرآن الكريم، ويستحضر هذا المشهد، فيتأكد من براءتهم، ويدرك في الوقت نفسه دور الحركة في رسم المعاني.

****

١– سنن ابن ماجه لمحمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني دار الفكر– بيروت تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ٢ /١٠١٣

ومن أعجب ما تبدعه حركة الجسد لتقريب المعاني، وتبسيطها للسامعين ما رواه أبو هريرة حين **قرأ هَذِهِ الآية:**

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة النساء:٥٨]

قَالَ:

(رأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ) [1]

فالحديث هنا عن أداء الأمانات، وهو حديث محمل بألوان من الوعيد والتهديد، بداية من قوله "ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ" وتأكيدها ب " إن "، والتذكير بأن للأمانات أهلا، هم أصحابها، وتكرار جملة: "أَن تَحۡكُمُواْ"، ثم العظة بقوله "نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ" وكأنها تعني: قد أعذر من أنذر،... في هذا السياق يقال: إن الله كان سميعا بصيرا، ويتبع النبي – ﷺ– هذه الجملة بمشهد يأخذ بالقلوب ومشهد يؤكد لك أن سمع الله وبصره قائم الآن يتفقدان خلجات قلبك، ودخائل نفسك، لتتذكر هذا القيام، وتستحضر هذه الإحاطة كلما سمعت لفظة الأمانات، فهي مما يتساهل فيه الناس، وضياعها نذير بقيام الساعة، ... وقد بَعُدَ ابن حبان – رحمه الله – حين علق على هذا الحديث فقال: إنه (أراد ﷺ بوضعه أصبعه على أذنه وعينه تعريف الناس أن الله جل وعلا لا يسمع بالأذن التي لها سماح والتواء،

١- سنن أبي داود كتاب السنة باب في الجهمية وذكر ابن تيمية: (أن المقصود بذلك تحقيق الصفة لا تمثيل الخالق بالمخلوق) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية مكتبة الرشد الرياض تحقيق أحمد سعيداي ١ / ١٠٣ ط الأولى ١٤١٥هـ

ولا يبصر بالعين التي لها أشفار وحدق وبياض جل ربنا وتعالى عن أن يشبه بخلقه في شيء من الأشياء بل يسمع ويبصر بلا آلة كيف يشاء)[1]

وهذا تأويل بعيد، فالسياق هنا لم يكن في بيان الكيفية التي يسمع بها ربنا أو التي يبصر بها، إنما في بيان الترهيب من تضييع الأمانات، فهذه الحركة مكملة للمعنى الذي أنتجته جملة "الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات" هذه التكملة تصور لك مدى الرقابة، والإحاطة بكل ما تفعله، فهناك السميع الذي يمعك، والبصير الذي يراك فاحذر، ولن تجد هذا عند حذف هذا المشهد.

****

١- صحيح ابن حبان البستي ١/ ٤٩٨ مؤسسة الرسالة بيروت تحقيق الأرناؤوط

تصوير العدد بالأصابع
" دلالة العقد"

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: " نحن أمة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة، والشهر هكذا وهكذا وهكذا، يعني: تمام ثلاثين يوما "

فحساب الأعداد لم يكن شائعا عند العرب، وكانوا يستعيضون عنه بوسائل حسية منها: استخدام الحصى حتى **قيل:** (إن أصل الإحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقدا معينا من عقود الأعداد كالعشرة والمائة والألف وضع حصاة ليحفظ بها كمية ذلك العقد فيبنى على ذلك حسابه) [1]

ومنها: حركة اليد والأصابع فيجمعون ويرسلون أصابعهم، ليرسموا بها ما يريدون من أعداد، وتعد هذه الحركات اصطلاحا تعارفوا عليه (وتواضعه بينهم؛ ليستغنوا به عن التلفظ، وكان أكثر استعمالهم له عند المساومة في البيع، فيضع أحدهما يده في يد الآخر، فيفهمان المراد من غير تلفظ؛ لقصد ستر ذلك عن غيرهما ممن يحضرهما. فعقد العشرة – مثلا – أن يجعل طرف السبابة اليمنى في باطن طي عقدة الإبهام العليا، وعقد الثلاثين أن يضم طرف الإبهام إلى طرف السبابة، مثل من يمسك شيئا لطيفا كالإبرة وكذلك البرغوث، وعقد السبعين أن يجعل طرف ظفر الإبهام بين عقدتي السبابة من باطنها ويلوي طرف السبابة عليها مثل ناقد الدينار عند النقد، وعقد التسعين أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها، ويضمها ضما محكما، بحيث تنطوي عقدتاها حتى

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لمحمد بن محمد العمادي أبي السعود ٩ / ٤٨ دار إحياء التراث العربي بيروت.

تصـــير مثل الحية المطوقة، وقيل: إن صـــورته أن يجعل الســـبابة في وســـط الإبهام، **وقيل:** (إن صفة عقد التسعين أن يثني السبابة، حتى يعود طرفها عند أصـــــلها من الكف، ويعلق عليه الإبهام. وعقد المائة مثل عقد التســـعين لكن بالخنصـــر اليســـرى، فعلى هذا فالتســـعون والمائة متقاربان، ولذلك وقع فيهما الشك، وأما العشرة فمغايرة لهما.))[1]

وهذا الحســـاب صـــار عند العرب كأنه علم يتناقلونه بينهم، ولا يتعارض هذا مع **قول النبي السابق:** " نحن أمة أمية لا نكتب ولا تحسب " لأن الحساب هنا له معان أخرى أشــــار إليها العلماء، منها ما قاله ابن العربي: من أن هذا إنما جاء لبيان صـــورة معينة خاصـــة، والمراد بنفي الحســـاب ما يتعاناه أهل صناعته من الجمع والفذلكة والضرب ونحو ذلك ومن ثم قال ولا نكتب) [2]

ويقول الألوسي في روح المعاني (وأُريدَ بذلك أنهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى، فالأمي نسبة إلى الأم التي ولدته، **وقيل:** نسبة إلى أمة العرب **وقيل:** إلى أم القرى والأول أشهر)[3] (وقيل إن الحســـاب **هو:** حســـاب النجوم وتســـييرها، ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضـــا إلا النذر اليســـير.. فلم نكلف في مواقيت عباداتنا ما يحتاج فيه إلى معرفة حساب ولا كتابة) [4]

والذي يعنيني هنا هو هذه الحركة، وإظهار العدد من خلال العقد باليدين، والذي فُهم منه تراوح الشـــهر العربي بين تســـعة وعشـــرين يوما، وثلاثين يوما،

١- عمدة القاري ١٥ / ٢٣٧، و ٢٤ / ١٨١

٢ - عمدة القاري ١٥ / ٢٣٧

٣ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمد الألوسي أبي الفضل ٢٨ / ٩٣ دار إحياء التراث العربي بيروت

٤- فتح الباري ٤ / ١٢٧

واقتصــار الإخبار في ذلك على حركة اليدين، مع أن لفظ الثلاثين ولفظ التسـعة والعشرين لم يكن مجهولا عند العربي، وبخاصة رسول الله – ﷺ –.

وهنا الســـؤال: لماذا توارى اللفظ هنا وبرزت الحركة، وعقدت الأصـــابع لتخبر عن عدة الشهر العربي؟

وهل في اللفظ ضعف عن أداء المراد؟ أم أن المقام هنا يحتاج إلى وسيلة أخرى للبيان غير اللفظ، وبخاصة أن العرب في الجاهلية تلاعبت بهذه الشهور، حيث (كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهرا ومن وجه آخر كانوا يجعلون السنة اثني عشـر شـهرا وخمسـة وعشـرين يوما فتدور الأيام والشـهور كذلك.... وقيل كانوا يجعلون المحرم صـــفرا، ويجعلون صـــفرا المحرم لئلا يتوالى عليهم ثلاثة أشـــهر لا يتعاطون فيها القتال ... وكانوا في الجاهلية على أنحاء منهم من يسمى المحرم صفرا، فيحل فيه القتال، ويحرم القتال في صفر، ويسميه المحرم، ومنهم من كان يجعل ذلك سنة هكذا وسنة هكذا، ومنهم من يجعله سنتين هكذا وســـنتين هكذا، ومنهم من يؤخر صـــفرا إلى ربيع الأول وربيعا إلى ما يليه... وهكذا إلى أن يصـير شـوال ذا القعدة، وذو القعدة ذا الحجة ثم يعود فيعيد العدد على الأصل.

وقال الخطابي كانوا يخالفون بين أشـهر السـنة بالتحليل والتحريم والتقديم والتأخير، لأسباب تعرض لهم منها استعجال الحرب، فيستحلون الشـهر الحرام، ثم يحرمون بدله شهرا غيره، فتتحول في ذلك شهور السنة، وتتبدل فإذا أتى على ذلك عدة من السنين استدار الزمان، وعاد الأمر إلى أصله) [1]

١ – فتح الباري ٨ / ٣٢٥

هذا التلاعب بالأشـــهر والزيادة فيها والنقصـــان جعل الحديث عن عدة الشهور يحتاج إلى وسيلة لا لبث فيها ولا تأويل، وكأن رسول الله – ﷺ بهذه الحركة – يخاطب كل ذي عينين، تماما كما تخبر أحدا بمعنى فيخالفه، فتقوم بتصـــويره أمام عينه حتى لا تكون له حجة، فالحركة هنا أعلى صـــوتا، وأظهر حجة، وأفصح لسانا من اللفظ، ولقد برهنت الأبحاث والتجارب أن التعلم يجري في الدماغ عن طريق الحواس التي تزوده بالمعلومات، وثبت أن هذه الحواس ليســـت على درجة واحدة في قدرتها على تجميع المعلومات وتزويدها للدماغ، **وجاءت نسبة مساهمة الحواس على النحو التالي :-**

(حاسة البصر ٣٠٪، حاسة السمع ٢٠٪، حاسة الذوق ١٠٪، حاسة الشم ٣.٥٪، حاسة اللمس ١.٥٪) [1]

وهذا يعني أن جميع الحواس تشـــترك في عملية التعلم مما يجعلها في حالة تيقظ وانتباه، فيؤدي ذلك إلى شحذها وتقويتها. وتلحظ أيضا أن نسبة الكلام، التي تمثلها حاســة الســمع لم تتعد العشــرين في المائة، مما يدل على أن الدلالات والمعاني يصل أغلبها إلى الذهن عن طريق الوسائل، زد على ذلك **أن في هذه الوسائل أهمية تفوق قدرة الألفاظ وحدها ومن جوانب هذه الأهمية ما يلي:**

١- تقليل الجهد، واختصار الوقت.

٢- أنها تثير اهتمام وانتباه المتلقي، وتنمي فيه دقة الملاحظة.

٣- تثبت المعلومات، وتزيد من حفظ المراد، وتضاعف استيعابه.

---

١ – مقالة على الانترنت من موقع منتدى أنا مسلمة ٢٠ صفر ١٤٢٦ هـ لكاتبة أشارت إلى نفسها ببنت اليوم

٤ – تنمي الاســـتمرار في الفكر، واســـتخلاص المعاني من كل حركة أو سكنة.

ووازن أنت بين معنى تلقيته من جملة ملفوظة أو مكتوبة، وبين المعنى نفسه الذي تلقيته من حركة مصورة، أو وسيلة توضيحية.....

لا شك أنك ستجد فرقا واضحا بين صورة كل منهما في ذهنك، وتمكنه من عقلك، وقدرتك على التعبير عنه، فإذا جمع ين اللفظ والوســـيلة، تكون قد جمعت بين الحسنيين.

فالحركة منه– ﷺ– أبلغ في إيصـــال المعنى المقصـــود إلى أذهان الحاضـــرين من مجرد القول، وبخاصـــة في مثل هذه الأغراض التي كثر فيها اللغط، ولذلك كررت في أكثر من مقام، ففي إيلائه – ﷺ– من نســائه نحا هذا النحو في تعريف الشهر، ففي حديث السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنها أنه: " أَقْسَمَ أَنْ لا يَدْخُلَ عَلَى نِسَائِهِ شَهْرًا، فَمَكَثَ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِسَاءَ ثَلاثِينَ دَخَلَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ إِنَّكَ أَقْسَـمْتَ أَنْ لا تَدْخُلَ عَلَيْنَا شَـهْرًا، فَقَالَ: الشَّـهْرُ هَكَذَا، يُرْسِلُ أَصَابِعَهُ فِيهَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ وَالشَّهْرُ هَكَذَا، وَأَرْسَلَ أَصَابِعَهُ كُلَّهَا وَأَمْسَكَ إِصْبَعًا وَاحِدًا فِي الثَّالِثَةِ) [1]

ومن أهم النماذج التي قام فيها العقد نائبا عن اللفظ ما رواه الإمام مســـلم من حديث أبي مالك الأشـــجعي أن رجلا أتى النبي – ﷺ، **فَقَالَ:** يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَقُولُ حِينَ أَسْأَلُ رَبِّي؟

١ – سنن ابن ماجة كتاب الطلاق باب الإيلاء

قَالَ: قُلْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي، وَيَجْمَعُ أَصَابِعَهُ إِلا الإِبْهَامَ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ). [1]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه **قال:** جاء رجل بدوي إلى رسول الله ﷺ **فقال:** يا رسول الله علمني خيرا، **قال:** قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

قال: (وعقد بيده أربعا) ثم ذهب فقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ثم رجع، فلما رآه رسول الله ﷺ تبسم **وقال:** تفكر البائس، **فقال يا رسول الله:** سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذا كله لله فما لي؟

فقال رسول الله ﷺ **إذا قلت:** سبحان الله.

قال الله: صدقت، **وإذا قلت:** الحمد لله.

قال الله: صدقت، **وإذا قلت:** لا إله إلا الله.

قال الله: صدقت، **وإذا قلت:** الله أكبر.

قال الله: صدقت.

فتقول: اللهم اغفر لي، **فيقول الله:** قد فعلت.

فتقول: اللهم ارحمني، **فيقول الله:** قد فعلت.

وتقول: اللهم ارزقني، **فيقول الله:** قد فعلت.

قال: فعقد الأعرابي سبعا في يده) [2]

١- صحيح مسلم بن الحجاج المكتبة العلمية بيروت.. كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء

٢ - رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وهو في المسند وسنن النسائي من حديث أبي هريرة بمعناه

والمقام هنا في هذين الحديثين مختلف عن غيرهما، فالمخاطب بهذين الحديثين رجلان من الأعراب البدو، وهذا يعني أن استخدام الوسائل الحسية هي اللغة الأقرب إلى طبيعتهما، واللغة التي يفهمها كل منهما، (فأهل البادية والأعراب يغلب عليهم الجهل والجفاء، ولهذا جاء في الحديث من بدا جفا)[1]

فاستخدام حركة اليد كأنما هو رجوع بالمعنى إلى بدايته الحسية، ليتناسب مع حال المخاطبين، وأنت تدرك أن هذا العقد يُبقي المعنى حاضرا محسوسا في قلوب الناس، يكررونه كل يوم، فهو ذكر، ودعاء، والمسلم مطالب بهذه الأدعية، وتلك الأذكار صباحا ومساء، فإذا وُضعت هذه الأذكار في يده، وعقدت عليها الأصابع، فكأنما أريد أن تظل هذه الأذكار حاضرة حية محسوسة تجمع له خير الدنيا والآخرة، لذا عدل بالمعنى من اللفظ المنطوق إلى الحركة المحسوسة.

****

وهذا العدول تراه بصورة أوضح حين يعبر القرآن الكريم عن عدد خزنة النار من الملائكة في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [سورة المدَّثر:٣٠].. ثم تجد رسول الله – ﷺ – يعبر عن هذا العدد بالحركة، وعقد اليدين.

وتدبر هذا الحديث الذي يرويه سيدنا جابر بن عبد الله **قال:** قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟

قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا، فجاء رجل إلى النبي – ﷺ – فقال يا محمد غُلِبَ أصحابك اليوم، **قال:** وبم غلبوا؟

١- شرح النووي على صحيح مسلم ١ / ١٦٩

قال: سألهم يهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم؟

قال: فما قالوا؟

قال: قالوا لا ندري حتى نسأل نبينا.

قال: أيغلب قوم سئلوا عما لا يعلمون؟

فقالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا، لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا: أرنا الله جهرة... عليّ بأعداء الله، إني سائلهم عن تربة الجنة وهي الدرمك، فلما جاءوا **قالوا:** يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم؟

قال: هكذا وهكذا في مرة عشرة، وفي مرة تسع قالوا: نعم "[1]

هنا استعاض رسول الله عن اللفظ بالعقد، فما وجه البلاغة في ذلك؟

إن الإخبار باللفظ يشعر بالمعرفة المجردة، وكأنما هو خبر ألقي إليه – ﷺ –، فأخبر به لكن الإخبار بالعقد يشير إلى معرفته لهم بأوصافهم، وأحوالهم، وخصائصهم، وأعمالهم.... إنه إخبار يلوح بمعاينتهم، وإدراكه لكل واحد منهم على حدة، لذلك جاء في رواية "ما بين منكبي أحدهما كما بين المشرق والمغرب" [2]

فالتحدي في سؤال اليهود جعل الإجابة تأخذ هذا الوجه، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب من صدقه، ويزداد الذين آمنوا إيمانا.

****

ومن بلاغة البيان بالعقد ما روته أم المؤمنين زينب بنت جحش: قالت: استيقظ رسول الله من نومه محمرا وجهه، وهو يقول لا إله إلا الله، يرددها

١- سنن الترمذي ٥ / ٤٢٩ حديث رقم ٣٣٢٧

٢- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، دار الغد العربي ١٩٩٣ ط / الأولى ١٩ / ٧٢

ثلاث مرات، وهو يقول: "**ويل للعرب من شــــر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد عشرا** "

أي: ليريهم مقدار ذلك الموضع المفتوح[1]

وحلق أصــــبعيه والتي تليها، **وقيل:** وعقد بيده تســـعين، وعقد التســـعين أضيق من العشرة.[2]

فشـــبه ﷺ قدر ما فتح من الســـد بصـــفة معروفة عندهم، وهي عقد الأصابع، (يعني جعل الإصبع السبابة في أصل الإبهام، وضمها حتى لم يبق بينهما إلا خلل يسير، **والمعنى:** أنه لم يبق لمجيء الشر إلا اليسير من الزمن)[3] وهذه الحركة صــــورت مقدار ما تبقى من الزمن، في ســـياق يتحدث عن ردم يأجوج ومأجوج، وهو من العظم بمكان، ومهما قلت إنه لم يبق إلا اليسير، وأنهم حفروا حتى خرقوا الجدار، وأن موعد انهدام الجدار قد اقترب،.....إلخ كل هذه الألفاظ لا ترقى في تجسيد المعنى، ورسمه، وإشعار السامع باقتراب الأجل مثل هذه الحركة، كما أن الحديث عن جدار، وخرق، وهدم، وهذا يناسبه رسم الجزء المنهدم، وتصـويره للعيون، ولذلك كان من البلاغة الاستعاضـة عن اللفظ بهذه الوســيلة التعبيرية **يقول ابن ماجة:** "وعقد بيده عشـــرة، **أي:** ليريهم مقدار ذلك الموضع المفتوح."[4] فليس من رأى كمن سمع.

١- سنن ابن ماجة مع تعليق محمد فؤاد عبد الباقي ٢ /١٣٠٥

٢- وقد جاء في خبر مرفوع ان يأجوج ومأجوج يحفرون الســد كل يوم وهو فيما أخرجه الترمذي وحســنه وبن حبان والحاكم وصـــححاه من طريق قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة رفعه في الســـد يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم ارجعوا فســـتخرقونه غدا فيعيده الله كأشـــد ما كان حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله ان يبعثهم قال الذي عليهم ارجعوا فســتخرقونه غدا ان شــاء الله واســتثنى قال فيرجعون فيجدونه كهيئته ابن حجر ١٢/ ١٠٧, وانظر عمدة القاري ١٥ / ٢٣٧

٣ – صحيح البخاري ٣ / ١٢٢١

٤ – سنن ابن ماجة ٢ / ١٢٠٥ تعليق محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر بيروت

المبحث الثاني

التعبير بالحال "دلالة الحال"

توطئة:

الفرح، والحزن، والغضب، والخوف، والإقبال، والإدبار، والإعراض، والإشاحة، والحياة، والموت.. إلخ كل هذه أحوال لها دلالات، تضاف إلى دلالة الألفاظ، أو توضح ما فيها من غموض، وقد تستقل بالمعنى، لأنها أقدر من اللفظ على إيصال المعنى إلى القلوب، يقول الجاحظ وهو يبرهن على دلالة الحال، وقدرتها على حمل المعاني: (قال خطيب من الخطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت: الاسكندر كان أمس انطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس – يعني أن موته صار أبلغ في عظة الناس من حياته.... ومتى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه وان كان صامتا وأشار اليه وان كان ساكتا)[1]

وكان الصحابة ينظرون إلى وجه النبي – ﷺ فيعرفون من المعاني والدلالات الكثير[2] فتسمعهم تارة يقولون: وَأَبْصَرَ فِي وَجْهِ النَّبِيّ، عَلَيْهِ السَّلَام الْجُوعَ...

---

١ – البيان والتبيين للجاحظ ١ / ٥٦

٢– إن دلالة الحال على المحبة أعظم من دلالة القال عليها بل الدلالة عليها في الحقيقة هو شاهد الحال لا صريح المقال ففرق بين من يقول لك بلسانه إني أحبك ولا شاهد عليه من حاله وبين من هو ساكت لا يتكلم وأنت ترى شواهد أحواله كلها ناطقة بحبه لك قال جعفر قال الجنيد دفع السري إلي رقعة وقال هذه خير لي من سبعمائة قصة وكذا فإذا فيها

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني ... فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا ... وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وتبخل حتى ليس يبقي لك الهوى ... سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

وبالجملة فشاهد الحب الذي لا يكذب هو شاهد الحال وأما شاهد المقال فصادق وكاذب، قوله ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب، يعني أن حقيقة المحبة وسرها لا يفهمه من المحب إلا محبوبه

ويقولون: " فَتَمَعَّرَ وَجْهُ النبي، ﷺ، وتَلَوَّنَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، وعُرف في وجه النبي ﷺ الكراهية، ورَأَيْتُ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ يَنْتَشِـرُ...إلخ وكذا في وجوه الناس وعلى رأسهم صحابة النبي ﷺ، فحين قرأ سيدنا مصعب بن عمير القرآن على سعد بن معاذ "عُرف في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به، في إشراقه وتسهله " [1]

فللوجوه دلالات تفهم من النظر إليها، حال طبيعتها، وكذا حين تغضب، أو تستبشر، أو تكره، أو تحب....... إلخ

كما أن للوجوه رسائل تلتقطها العيون فتهش لها وترتاح، أو تنقبض وتعرض، ومن كلام العلماء في وجه النبي – ﷺ– ما ذكره النيسابوري في تفسيره: (أن النظر إلى وجه النبي ﷺ كافٍ لمن كان له قلب مستنير، فإذا انضمت الدعوة إلى ذلك كان في الهداية غاية.)[2] (وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ جاحداً له منكراً، فلما وقع بصره على طلعته قال: والله ما هذا وجه كذاب)[3]

وعلى العكس حين تنظر إلى وجوه الكافرين تجد انقباضا، وضيقا قد استوليا عليك، ولقد عبر القرآن الكريم عن حالة من حالات وجوه الكافرين

١- تفسير البغوي ٢ / ٨١ معالم التنزيل: لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى ٥١٦ هـ] حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م

٢- تفسير النيسابوري ٦ / ٢٧١

٣- تفسير الألوسي ١٩ / ١٢٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود ابن عبد الله الألوسي.

فقال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [سورة المدَّثر:٢٢].. (أي: قطب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به في القرآن) [1]

فكان عبوس الوجه دليلا على عدم وجود شبهة في القرآن يطعن فيها، **وقيل:** إن ظهور العبوس في الوجه يكون بعد المحاورة، وظهور البسور في الوجه قبلها، والعرب تقول: وجه باسر إذا تغير واسودّ. **وقال الراغب:** البسر استعجال الشرّ قبل أوانه نحو بسر الرجل حاجته، **أي:** طلبها في غير أوانها. **قال:** ومنه **قوله:** {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} أي: أظهر العبوس قبل أوانه وقبل وقته، وأهل اليمن **يقولون:** بسر المركب وأبسر **أي:** وقف لا يتقدّم ولا يتأخر. [2]

ولا يمكن إغفال هذه الأحوال عند الحديث عن بلاغة نص، أو فصاحة أسلوب، فهي أضواء كاشفة، وأنوار ساطعة على النص لا يمكن قراءته دون الرجوع إليها.

وفي حديث المعصوم – ﷺ – كثير من هذه الأضواء، ومن ذلك حديث عدي بن حاتم، وفيه يقول: قال النبي ﷺ **(اتقوا النار). ثم أعرض وأشاح ثم قال (اتقوا النار)، ثم أعرض وأشاح، ثلاثا، حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم قال (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة)**[3]

فالإشاحة هنا لها دلالة أخرى غير تحذير الناس من النار، إنها تُظهر حذره هو – ﷺ – من النار، وإبراز هذا الخوف أمام الناس ليستشعروا مدى شدتها، كما أن هذه الإشاحة ترسم مشهدا آخر، وهو نقل التجربة الحسية

١- فتح القدير ٧ / ٣٥٠ لمحمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني

٢- السابق ٧ / ٣٥٠

٣- البخاري ٥ / ٢٣٩٥

للناس فالإشاحة بالوجه أخرجت النار إلى حيز الحس، وأمامها رسول الله كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، ويرى لظاها، وما فيها من لهيب، ثم أسرع فصَرَفَ وَجْهَهُ كَالْخَائِفِ أَنْ تَنَالَهُ، أو كالهارب منها، فلما رأى الناس هذا المشـــهد انتقل إليهم الحذر الشـــديد منها، لم لا ورســـول الله – ﷺ، يهرب منها، ويعرض بوجهه عنها، ويفر؟ !!.

إنه مشـــهد تمثيلي تكاملت فيه الألفاظ والصـــورة لتنقل للمشـــاهدين أبلغ المعاني التحذيرية من النار، وقام بالمشـهد التصـويري رسول الله – ﷺ– كي لا يأمن أحد بعده من النار، ثم تأتي جملة تربت على القلوب، وتهدئ من الروع، وتبلل الأفئدة بحبل النجاة، وســـبيل الخلاص، وهي جملة " فاتقوا النار ولو بشـق تمرة ".. إنها جملة أعادت الأرواح إلى القلوب بعد أن بلغت الحلقوم، فما أيسر التمرة، وما أعظم الصدقة، وما أفصح المعصوم – ﷺ–.

****

ومن المشـــاهد التي كان يرسـمها رسـول الله – ﷺ– ما روته السـيدة عائشـة – رضـوان الله عليها أنه كان إذا عصـفت الريح **قال:** " اللهم إني أسـألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ".

قالت: وإذا تخيلت الســـماء[١] تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرِّي عنه، فعرفت ذلك في وجهه. قالت عائشة: فسألته؟

١- (مِنْ الْمَخِيلَة بِفَتْحِ الْمِيم، وَهِيَ سَـــحَابَة فِيهَا رَعْد وَبَرْق يُخَيَّل إِلَيْهِ أَنَّهَا مَاطِرَة) شـــرح النووي على مســـل ٣/ ٣٠٤.

فقال: " لعله – يا عائشة – كما **قال قوم عاد :(**فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به**)** [1]

والآن دع عنك الكلمات والجمل قليلا، وانظر إلى هذا المشـــهد....... سُـحُب قادمة، وريح تعصـف، ثم ينظر الصـحابة فيرون رسـول الله- ﷺ- قد تغير لونه، وترك ما يفعله، ولو كان يصـــلى كما جاء في بعض الروايات، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، وأخذ يلح في الدعاء ....

ثم تفحص ما يداخلك من معان، تجد هلعا ورعبا، مع أن المقام مقام استبشار، وتعاهد الناس على البشر حين يرون مثل هذه الغيوم، وهنا تثور في النفوس ما يثور فيها من اســتغراب، يتحول إلى خوف وفزع وترقب، وتســأل السيدة عائشة عن سبب هذه الأحوال، فيجيبها ﷺ.

والإجابة تأخذك إلى هذا الواقع – زمانا ومكانا وأحداثا – ثم تنظر فتجد الآيات تتنزل صباح مساء على قلبه – ﷺ– تخبره بمصارع السابقين، **وتقول له:** ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:٤٠]

في هذا الجو ترى رســول الرحمة، الرؤوف الرحيم، الذي جعله ربنا أولى بنا من أنفســنا، تراه لا يهدأ، ولا يركن حتى تزول الغمة، تراه يتغير لونه إشــفاقا على أمته من أن يحل بها ما حل بمن قبلها، مع أنه لم يدعُ على أمَّته، ولم يظهر تبرما، ولم ييأس من هدايتهم، لكن ما زال هناك مكذبون، مازال هناك

---

١ – أخرجه مسلم (٢٦/٣) والطحاوي في " مشكل الآثار " (٤٠٠/١) والنسائي (٩٤٠ و٩٤١)

من ينكرون نبوته ورسـالته، وما أدراه لعل هؤلاء يكونون سـببا للعذاب، ومن هنا لا يُسـرّ عنه حتى تنزاح الغمة، وتهدأ الريح، وينزل المطر، وتزول كل المعالم التي كانت مقدمة لإهلاك الأمم السابقة.

وتتعجب السـيدة عائشـة من هذه الحركات، وهذا الاضـطراب فتسـأل وتقول: (يَا رَسُـولَ اللَّهِ إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ؟ فَقَالَ يَا عَائِشَـةُ مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيـهِ عَـذَابٌ، عُـذِّبَ قَوْمٌ بِـالرِّيحِ، وَقَـدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَـذَابَ فَقَـالُوا: "هَـذَا عَـارِضٌ مُمْطِرُنَا")[1]

****

ومن دلالة الحال ما يظهر عليه ﷺ من أمارات الغضـب، تبين وقوع البعض في مخالفات نهى عنها، أو أفعال لم يأمر بها، تشـديدا على أنفسـهم، ورغبة في التقرب إلى الله تعالى والوصـول إلى أعلى مراتب الطاعة، وفي كل ذلك يظهر الغضب على وجهه حتى يعرفوا حجم المخالفة.

ومن ذلك: ما رواه عبد الله بن أبي بكر عن أبيه أن رَسُـولَ اللَّهِ ﷺ اسْـتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْـهَلِ عَلَى الصَّـدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ سَـأَلَهُ إِبِلًا مِنْ الصَّـدَقَةِ، فَغَضِـبَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ، **حَتَّى عُرِفَ الْغَضَـبُ فِي وَجْهِهِ وَكَانَ مِمَّا يُعْرَفُ بِهِ الْغَضَـبُ فِي وَجْهِهِ أَنْ تَحْمَرَّ عَيْنَاهُ**، ثُمَّ قَالَ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَسْـأَلُنِي مَا لا يَصْلُحُ لِي وَلا لَهُ، فَإِنْ مَنَعْتُهُ كَرِهْتُ الْمَنْعَ، وَإِنْ أَعْطَيْتُهُ أَعْطَيْتُهُ مَا لا يَصْلُحُ لِي وَلا لَهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لا أَسْأَلُكَ مِنْهَا شَيْئًا أَبَدًا" .

---

١ – فتح الباري ١٣ / ٣٩٥

وعَنْ أَبِي مَسْــعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ، مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، **قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَطُّ أَشَــدَّ غَضَــبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ**، قَالَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ فِيهِمْ الْمَرِيضَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَة.

وعنْ عَائِشَــةَ رضي الله عنها قَالَتْ: رَخَّصَ رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَمْرٍ فَتَنَزَّهَ عَنْهُ نَـاسٌ مِنْ النَّـاسِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ – ﷺ – **فَغَضِــبَ حَتَّى بَانَ الْغَضَــبُ فِي وَجْهِه**، ثُمَّ قَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً "

وقالت: قالت كان رسـول الله ﷺ يأمرهم من الأعمال بما يطيقون فقالوا إنا لسـنا كهيئتك، إن الله غفر لك **فيغضـب حتى يعرف الغضـب في وجهه** " [1]
ولقد كان النبي ﷺ يغضب حتى يحمر وجهه وتدر عروقه لله وفي الله [2]

وغير ذلك كثير من الأمور التي جمع فيها رســول الله بين الغضــب الشـديد، وبين الإرشـاد بالكلام، فصــار الغضــب مقاما، يحيط بالكلام، فيوجه دلالته، ويأخذ بناصـــية المعنى إلى حيث التحذير، فللغضــب في مثل هذه المقامات فائدة بيانية، وهي إشــعار المخاطب بخطورة الأمر، ليتيقظ، وينتبه أنه يخالف الأمر الشرعي، ويعلم أن في الأمر إنذارا، وخطورة تطلبت الانزعاج.....

---

١ – راجع فتح الباري ٤٦/٣ والمنتقي في شــرح الموطأ ٤ / ٤٧٨ وفتح الباري لا بن رجب ٤٤/١، وشــرح البخاري لابن بطال ١٣/٧

٢– بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخيار للكلاباذي: موقع جامع الحديث على الانترنت (أهل السنة) ٤٦٠/١

ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يشفقون من غضبة خشية أن يكون غضبه لأمر يعمهم بعذاب، وعند البخاري "عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ **قَالَ:** سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَشْيَاءَ **كَرِهَهَا، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ الْمَسْأَلَةَ غَضِبَ وَقَالَ:** سَلُونِي فَقَامَ رَجُلٌ **فَقَالَ:** يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَبِي؟

قَالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ، ثُمَّ قَامَ آخَرُ **فَقَالَ:** يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبِي؟

فَقَالَ: أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَى شَيْبَةَ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ بن الخطاب مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْغَضَبِ **قَالَ:** إِنَّا نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.)

ففي الغضب إنذار، وفي الغضب تحذير، وفي الغضب تشديد، وفي الغضب زجر وتهديد، ولذا جثا سيدنا عمر على ركبتية مسترضيا رسول الله – ﷺ – حتى ينفضّ هذا الموقف، فكثرة السؤال منهم، تشير إلى وجود شك في رسالته، لذا خرج عليهم غاضبا، وكثرة السؤال منهم تفتح أبوابا من الأولى أن تظل مغلقة، فكانت إجاباته عليهم كلسع اللهب الذي اكتووا منه، فهذا يسأله أين أنا؟

قال له أنت في النار.

وآخر يسأله من أبي؟

فيخبره عن نسب غير نسبه.....

فكان من حكمة سيدنا عمر أن أسرع بالركوع أمامه واسترضائه لينفض هذا الموقف، ويزول هذا الغم، وقد كان.

****

وإذا كان للغضب دلالاته فإن للبشر والسرور والضحك معانيه التي يشعر بها كل من حضر وشاهد، لأنها حالات ترسل للمتلقي رسائل دلالية مفادها: الرضى الكامل بما حدث، والرغبة في تكرار الأمر الذي بسببه حصل البشر، وإشعار المتلقي بكمال الأمن والطمأنينة، وزوال الخوف والقلق، وكل ذلك معان قامت هذه الوسائل المصاحبة للكلام بإرسالها إلى المتلقي، وقد تستقل بالدلالة دون الكلام ولذلك حين أتت رسل الله إبراهيم بالبشرى جاءُوه في هيئة الأضياف حتى أنه لم يعرفهم، **وعبر القرآن الكريم عن الفرح والسرور الذي أحاط بامرأته فقيل:**

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾

[سورة هود:٧١]

فحين زال خوفها ضحكت تعبيرا عن سرورها، فكأنها أرادت أن تعبر عن كمال رضاها بالبشرى، وقبولها لهذه البشارة، وكمال الطمأنينة التي أحاطت بها بعد الخوف، فلم تتكلم بهذه المعاني بل أرسلتها من خلال الفرح والسرور والضحك.

وقد يكون الضحك أمارة على تصديق القول كما جاء في حديث النبي ﷺ: عن عبد الله بن مسعود، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، حين جاءه حبر من أحبار اليهود، فجلس إليه، فقال له النبيّ ﷺ:"حَدِّثْنا، قال: إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة، جعل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والماء والشجر على أصبع، وجميع الخلائق على

أصبع ثم يهزهنّ ثم يقول: أنا الملك، قال: **فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر)**[1] .

وأنكر العلامة ابن حجر أن يكون الضحك تصديقا لكلام الحبر، وذهب إلى أنه إنكار لما قال، وتكذيبا له[2]، وسواء كان الضحك تصديقا – وهذا ما أراه – أو تكذيبا كما قال العلامة ابن حجر، فالذي يعنيني هنا أن الضحك كان وسيلة بيانية، فَهِمَ منها الصحابة معنى لم يُدلُّ عليه بالكلام.

وَقَدْ اِشْتَدَّ إِنْكَار اِبْن خُزَيْمَةَ عَلَى مَنْ اِدَّعَى أَنَّ الضَّحِك الْمَذْكُور كَانَ عَلَى سَبِيل الْإِنْكَار، فَقَالَ بَعْد أَنْ أَوْرَدَ هَذَا الْحَدِيث فِي " كِتَاب التَّوْحِيد " مِنْ صَحِيحه بِطَرِيقِهِ قَدْ أَجَلَّ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ أَنْ يُوصَف رَبّه بِحَضْرَتِهِ بِمَا لَيْسَ هُوَ مِنْ صِفَاته **فَيَجْعَل بَدَل الْإِنْكَار وَالْغَضَب عَلَى الْوَاصِف ضَحِكًا**، بَلْ لَا يُوصِف النَّبِيّ ﷺ بِهَذَا الْوَصْف مَنْ يُؤْمِن بِنُبُوَّتِهِ، وَقَدْ وَقَعَ الْحَدِيث الْمَاضِي فِي الرِّقَاق عَنْ أَبِي سَعِيد – رَفَعَهُ " تَكُون الْأَرْض يَوْم الْقِيَامَة خُبْزَة

١– تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء أسماعيل ابن كثير ت/ سامي سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع ط / الثانية ١٤٢٠هـ ٧ / ١١٣ وصحيح البخاري ٢٢/ ١٢١

٢– يقول ابن حجر – رحمه الله– : (وَأَمَّا ضَحِكه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْل الْحَبْر فَيَحْتَمِل الرِّضَا وَالْإِنْكَار ، وَأَمَّا قَوْل الرَّاوِي " تَصْدِيقًا " لَهُ فَظَنّ مِنْهُ وَحُسْبَان ، وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيث مِنْ عِدَّة طُرُق لَيْسَ فِيهَا هَذِهِ الزِّيَادَة ، وَعَلَى تَقْدِير صِحَّتهَا فَقَدْ يُسْتَدَلّ بِحُمْرَةِ الْوَجْه عَلَى الْخَجَل ، وَبِصُفْرَتِهِ عَلَى الْوَجَل ، وَيَكُون الْأَمْر بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَقَدْ تَكُون الْحُمْرَة لِأَمْرٍ حَدَثَ فِي الْبَدَن كَثَوَرَانِ الدَّم ، وَالصُّفْرَة لِثَوَرَان خُلِطَ مِنْ مِرَار وَغَيْره ، وَعَلَى تَقْدِير أَنْ يَكُون ذَلِكَ مَحْفُوظًا فَهُوَ مَحْمُول عَلَى تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى : ﴿...وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ...﴾ [سورة الزُّمَر:٦٧] أَيْ قُدْرَته عَلَى طَيّهَا ، وَسُهُولَة الْأَمْر عَلَيْهِ فِي جَمْعهَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَمَعَ شَيْئًا فِي كَفّه وَاسْتَقَلَّ بِحَمْلِهِ مِنْ غَيْر أَنْ يَجْمَع كَفّه عَلَيْهِ بَلْ يُقِلّهُ بِبَعْضِ أَصَابِعه ، وَقَدْ جَرَى فِي أَمْثَالهمْ فُلَان يُقِلّ– كَذَا– بِإِصْبَعِهِ وَيَعْمَلهُ بِخِنْصَرِهِ .....اِنْتَهَى مُلَخَّصًا ،

وَاحِدَة يَتَكَفَّؤُهَا الْجَبَّار بِيَدِهِ كَمَا يَتَكَفَّؤُ أَحَدُكُمْ خُبْزَته " الْحَدِيث، وَفِيهِ أَنَّ يَهُودِيًّا دَخَلَ فَأَخْبَرَ بِمِثْلِ ذَلِكَ **فَنَظَرَ النَّبِيّ ﷺ إِلَى أَصْحَابه ثُمَّ ضَحِكَ.)** [1]

وعلق النووي على ذلك فقال: (ظَاهِر الْحَدِيث أَنَّ النَّبِيّ ﷺ صَدَّقَ الْحَبْر فِي قَوْله: إِنَّ اللَّه تَعَالَى يَقْبِض السَّمَوَات وَالْأَرْضِينَ، وَالْمَخْلُوقَات بِالْأَصَابِعِ، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَة الَّتِي فِيهَا الْإِشَارَة إِلَى نَحْو مَا يَقُول، قَالَ الْقَاضِي: وَقَالَ بَعْض الْمُتَكَلِّمِينَ: لَيْسَ ضَحِكه ﷺ وتَعَجُّبه وَتِلَاوَته الْآيَة تَصْدِيقًا لِلْحَبْرِ، بَلْ هُوَ رَدّ لِقَوْلِهِ، وَإِنْكَار وَتَعَجُّب مِنْ سُوء اِعْتِقَاده، فَإِنَّ مَذْهَب الْيَهُود التَّجْسِيم، فَفُهِمَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَقَوْله تَصْدِيقًا لَهُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ كَلَام الرَّاوِي عَلَى مَا فُهِمَ، وَالْأَوَّل أَظْهَر.) [2].

ولعلك تدرك أن هذا الخلاف يرجع إلى مذهب كل رأي في الأسماء والصفات، فابن حجر يؤول، والآخرون يقبلون ما ورد دون تشبيه، وسواء كان هذا أم ذاك فموضوعنا على دلالة الضحك إما على التصديق، وإما على الإنكار، وكلا الرأيين يثبت دلالة الضحك على المعاني.

ومن أبرز النماذج التي ترسخ قدرة الضحك على حمل المعاني ما أخرجه الإمام أحمد عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه قال لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: "يا عمرو صَلَّيت بأصحابك وأنت جُنُبٌ ؟!!!"

١- فتح الباري ٢٠ / ٤٩٠

٢ - شرح النووي على مسلم ٩ / ١٦٥

قال: قلت يا رسول الله: إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلكَ، فذكرت قول الله "عزوجل":

﴿...وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [سورة النساء:٢٩]

فتيممت ثم صليت.... **فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا.** [١]

وعدم التعليق بالكلام هنا، والاقتصـــار على الضـــحك دليل على إجازة ما فعله سيدنا عمرو بن العاص، وإرشاد لغيره بانتهاج هذا المنهج، فالدين يسر لا عسـر، وتقدير الأحوال، والنظر في العواقب، والأخذ بالرخص عند الضـرورة منهج أقره رسـول الله ﷺ بضـحكه من فعل سيدنا عمرو، وقد علق ابن حجر على ذلك فقال: (لَمْ يَلُمْ رَسُـــول اللَّه ﷺ عَمْرًا، فَكَانَ ذَلِكَ تَقْرِيرًا دَالًّا عَلَى الْجَوَاز)[٢] وكان صـــاحب عون المعبود أكثر صـــراحة في الإشـــارة إلى دلالة الضـــحك حيث **قال:** (فِي الحديث دَلِيل عَلَى جَوَاز التَّيَمُّم عِنْد شِـــدَّة الْبَرْد مِنْ وَجْهَيْنِ: **الْأَوَّل:** التَّبَسُّـــم وَالِاسْـــتِبْشَـــار، **وَالثَّانِي:** عَدَم الْإِنْكَار، لِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ لَا يُقِرّ عَلَى بَاطِل، وَالتَّبَسُّم وَالِاسْتِبْشَار أَقْوَى دَلَالَة مِنْ السُّكُوت عَلَى الْجَوَاز)[٣] فكأن الضـــحك هنا دليل قوي على جواز ما فعله سـيدنا عمرو بن العاص رغم أن النبي – ﷺ– لم يقل ذلك، لكن الضـــــحك أغنى عن الكلام، وحل محله، ودل على إصابة سيدنا عمرو في استنتاجه واستدلاله.

١- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء أسماعيل ابن كثير ٢ / ٢٧٠ ت/ سامي سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع ط / الثانية ١٤٢٠هـ

٢ – فتح الباري ٢ / ٣٧

٣- عون المعبود شرح سنن أبي داوود لشمس الحق العظيم أبادي دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الثانية، ١٤١٥ – ١/ ٣٨١

المبحث الثالث

البيـــان بالوســـائـــل الخارجيـــة

(الخط – الحص – العص)

ما ســـبق كان بيانا عن المعاني بوســـائل من داخل الجســـد، باليد، أو الوجه، أو الأحوال، لكن رسول الله – ﷺ قد يجمع مع اللفظ وسيلة بيانية أخرى، يستخدم من خلالها الخطوط المرسومة، أو الحصباء، أو أعواد الحطب، وكل وسيلة من هذه الوسائل ترسم للمعنى طريقه، وتأخذ بناصيته.

البيان بالخطوط

وأول هذه الوسائل الخط، ولا أعني بالخط هنا الكتابة، وتحويل المنطوق إلى كلمات مكتوبة كما أرشـــد النبي ﷺ الرجل الذي لا يحفظ أن يكتب ما يسمعه[1]

وإنما أعني بالخط هنا الوســائل الإيضــاحية التي تُرســم، فتكون معينة للمتلقي على تصور المعنى والإحاطة به، ولقد أصبحت هذه الوسائل التي ترسم للمتعلمين هي الأبرز والأقوى في التأثير، والأســرع في إيصـــال المعلومة إلى السامع، لأنها مصحوبة بالمشهد، فهي ترسم المعني المنثور في جمل وعبارات كثيرة من خلال صـــورة تلتقطها العين دفعة واحدة فتصـــل إلى الذهن كاملة

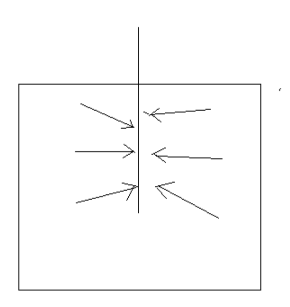
١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (كَانَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ يَجْلِسُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَيَسْمَعُ مِنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الْحَدِيثَ فَيُعْجِبُهُ وَلا يَحْفَظُهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ الْحَدِيثَ فَيُعْجِبُنِي وَلا أَحْفَظُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه : اسْتَعِنْ بِيَمِينِكَ ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ لِلْخَطِّ)

الهيئة، مجسدة الملامح، فتراها العين فتنقلها على عجل إلى الذهن، وهذا عكس الكلمات المسموعة التي تنقلها الأذن إلى الذهن فيلهث خلف تحليلها، وتصورها ثم فهمها، واستيعاب المراد منها.

وقارن أنت بين صـــــورة مرئية أمام العين، وبين التعبير عنها من خلال الكلمات حتى تدرك الفرق بين ما حصله الذهن من هذا ومن ذاك.

ولقد حفلت الســنة الشـريفة بهذه الوســائل التى أرشــد إليها المعصـــوم – صلى الله عليه وسلم – في كثير من توجيهاته، وهذه بعض النماذج:

عن ابن مســعود – رضي الله عنه – قال: **خط النبي ﷺ خطًا مربعًا وخط خطًا في الوســط خارجًا منه، وخط خططًا صــغارًا إلى هذا الذي في الوســط، من جانبه الذي في الوسط، وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به –أو قد أحاط به–، وهذا الذي هو خارج: أمله، وهذه الخطط الصغار: الأعراض، فإن أخطأه هذا، نهشه هذا، وإن أخطأه هذا، نهشه هذا** [١].



وخل عنك الصورة، وتدبر الكلام وحده، ستجد الذهن قد أخذ وقتا، وبذل جهدا كبيرا، في تحصيل المعنى، ولن يأتيك المعنى كما جاءك بعد أن ضممت إلى اللفظ الصـــورة، وجعلتها له عونا ونصـــيرا، ولا شـــك أن الجمع بين هذه

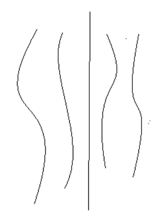
١– سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب منه رقم ١٠٩١٤

الصورة، وما بسطه رسول الله من كلام، أحدث في النفس قاعدة لا تنسى، هذه القاعدة رسمت في الذهن أن (الأجل أقرب إلى الإنسان من الأمل)، وصارت هذه القاعدة صورة محفورة أمام العيون، تراها في حلها وترحالها، حيث جاء التمثيل بالصورة في أعقاب المعني كما قال الإمام عبد القاهر – رحمه الله –، ولو أننا نظرنا إلى هذه الوسائل كلها في هذا البحث لوجدناها داخلة في علم البيان حيث تحولت الكلمات والمعاني إلى صور مرقومة، ومشاهد مرسومة، وتلك حقيقة علم البيان.

****

ومن أبرز النماذج التي استخدمها رسول الله – ﷺ – لتوضيح المعاني ما رواه سيدنا عبد الله بن عباس قال **خط رسول الله ﷺ خطا، وخط عن يمين الخط وعن شماله خططا، ثم قال هذا صراط الله مستقيما، وهذه السبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ:**

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا ...﴾ [سورة الأنعام:١٥٣].[1]



١- المستدرك على الصحيحين للحاكم ٧ / ٦٤: لمحمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري دار الكتب العلمية- بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠ تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا

وفي الصورة تلحظ ما يلي:

١ – أن طريق الرشد طريق واحد، أما طرق الضلال فمتعددة.

٢ – أن طرق الضلال ملتبسة بطريق الرشاد، وقريبة منه، حتى ليخيل للناظر أنها هو، فهي به محيطة، تقترب منه تارة، وتبعد عنه أخرى، مما يستدعي التأني والنظر في العاقبة.

٣ – أن طريق الرشاد طريق مستقيم، لا يتلون بزمان ولا مكان، ولا أشخاص.

٤ – أن طرق الضلال قد تبدو أيسر، وأشد اختصارا من طريق الحق.

٥ – أن السبل في بدايتها زينة وإغواء من الشيطان، لذا قيل: على كل سبيل منها شيطان، لكن عاقبتها فُرقة واختلاف، أما سبيل الله تعالى فهو سبيل اعتصام، فحين تجد الطريق يؤدي بك إلى الفرقة فاعلم أنه طريق شيطان، وهذه من أمارات سبل الضلال.

وهذه المعاني تدركها جميعا من خلال الصورة المرسومة دفعة واحدة، وتتأكد لديك كلما راجعت الصورة، وكررت النظر، فكأن الصورة التوضيحية هنا أضافت للكلام بُعدا آخر وهو ترسيخ المعاني، وإبرازها في شكل مختلف عن الكلمات المسموعة، وهذا مما يثير النفس ويحفزها، وينبهها إلى ما ينبغي أن تسلك، لأن في الأمر إشكالًا، وتزيينا من الشيطان، والتباسا تنخدع به النفوس، **يقول الإمام أبو حامد الغزالي:** (والمشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة، وباب الملائكة باب واحد، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك، في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة، والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفى بالتقوى. والشمس المشرقة هو

العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، مما يهدي إلى غوامض طرقه، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطا وقال "هذا سبيل الله" ثم خط خطوطاً عن يمين الخط وعن شماله ثم قال "هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه " ثم تلا " وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل " لتلك الخطوط، فبين ﷺ كثرة طرقه.)[1] فكأن الصورة تضع أمام السامع العلامات الإرشادية التي تهديه إلى طريق الله، طريق الرشاد.

(قال القاضي أبو الفرج: وهذا القول من النبي ﷺ والتمثيل من أبين الأقوال البليغة وأفصحها، وأرصن الأمثال البليغة المضروبة الصحيحة وأوضحها، وذلك أنه خط خطاً جعله مثل الصراط في استقامته، إذ لا زيغ فيه ولا ميل، ثم خط خطوطاً يمنة وشأمة آخذه في غير سمته وجهته، تفرق بمن سلكها واتبعها عن السبيل التي هي سبيل الهدى، والنجاة من مرديات الهوى، وبهذا جاء وحي الله وتنزيله في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، **قال:** جل ذكره:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ...﴾ [سورة الشورى:١٣].

فدل هذا على مثل ما دلت عليه الآية التي تلاها رسول الله ﷺ في الخبر الذي رويناه **فقال تعالى:**﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي

---

١ – إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد دار االمعرفة– بيروت ٣ / ٢٣٢

شَيۡءٍۚ ...﴾ [سورة الأنعام:١٥٩] وقال: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [سورة المؤمنون:٥٣] في كثير مما يضاهي هذا المعنى [١]

****

ومن نماذج الخط في الأرض لتمثيل المعاني أمام الناظرين ما رواه سيدنا عبد الله ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما **قَالَ:** (خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ، **قَالَ:** تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ **فَقَالُوا:** اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. **فَقَالَ** رَسُولُ اللَّهِ أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ رضي الله عنهن أجْمَعِينَ.) [٢]

| | | |

---

١ – الجليس الصالح والأنيس الناصح للمعافى بن زكريا ١/ ١٢ وهو كتاب ضخم، من نوادر كتب الأسمار، أملاه المعافى على تلاميذه وهو في عشر التسعين. ويعتبر من فصيلة الكتب التي تشتمل على فقر من الآداب والفوائد، منثورة غير مبوبة، ومخلوطة غير مقيدة، سمى كل مجموعة منها مجلساً، يكفي لسمر ليلة واحدة، وقسم الكتاب إلى مائة مجلس، والتزم أن يفتتح كلاً منها بحديث نبوي شريف. وفي تعليقه على بعض هذه الأحاديث ما يرشحه ليكون واحداً من عمالقة الأدب الإنساني الرفيع، ككلامه عن الاستبداد والاستعباد في تعقيبه على حديث: (أخذ جبريل بلحيتي). ومن ميزات الكتاب المعتبرة أنه يؤرخ للكثير من سماعاته بالأيام، وأول هذه السماعات سنة ٣١٤هـ وامتد نفس الكتاب، حتى وردت فيه حادثة من أيام القاهر بالله، الذي ولى الخلافة سنة ٣٨١هـ. طبع الكتاب سنة ١٩٨١م في أربعة مجلدات بتحقيق د. محمد مرسي الخولي دار الكتاب العربي بيروت.

٢– مسند الإمام أحمد ١ / ٢٩٣

وقد جاء تفضيل هؤلاء الأربعة في رواية أخرى تتحدث عن القدوة، وأنهن بلغن درجة الكمال لمن أرادت المَثَل الأعلى بين نســــاء الدنيا، والحديث يرويه سـيدنا أنس عن رسـول الله ﷺ أنه "قَالَ حَسْـبُكَ مِنْ نِسَـاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ.") [١]

وتثور هنا عدة أسـئلة: وهي هل هناك أوجه شـبه بين النسـاء الأربع؟ وهل هناك تفاضل بين الأربعة؟ وما الذي أضافته الصورة المرسومة للمعنى؟

وللإجابة على السؤال الأول: أقول نعم، وإلا لما جمعن تحت راية الكمال والخيرية، فهن جميعا قدوة لكل من أرادت من النســـاء قدوة لها، ولو أن الكمال في الرجال وحدهم لتعللت النســـاء بأنهن لا قدوة لهن، لكن في كل واحدة من الأربع قدوة، فمن أرادت القدوة في التبتل والانقطاع للطاعة، والعفاف فمريم تكفيها، ومن أرادت القدوة في الصبر على أذى الزوج فآسية تكفيها، ومن أرادت القدوة في رعاية زوجها وعونه، وتربية الأولاد، فخديجة تكفيها، ومن أرادت القدوة في الخير كله ففاطمة تكفيها، ويؤكد هذا قوله " حســـبك من نســـاء العالمين مريم....إلخ أَيْ: الْوَاصِلَةِ إِلَى مَرَاتِبِ الْكَامِلِينَ فِي الِاقْتِدَاءِ بِهِنَّ وَذِكْرِ مَحَاسِنِهِنَّ وَمَنَاقِبِهِنَّ وَزُهْدِهِنَّ فِي الدُّنْيَا وَإِقْبَالِهِنَّ عَلَى الْعُقْبَى – رضي الله عنهم أجمعين. [٢]

وفي رسم الخطوط الأربعة دون تفضيل، أو تمييز إشارة واضحة إلى أن الأربعة سواء، فكل منهن سبيل مستقيم لكل من أرادت أن تسلك طريق الكمال.

١- سنن الترمذي رقم ٣٨٧٨

٢- تحفة الأحوذي بشـــرح جامع الترمذي لمحمد بن عبد الرحمن المباركفوري٩ / ٣١٩ – دار الكتب العلمية بيروت

فالروايات لم تذكر إلا أربعة خطوط دون إشـــارة إلى زيادة إحداها على الأخرى، أو استقامة خط دون آخر، وهذا يجرنا إلى إجابة السؤال الثاني، حيث رأى البعض أن هناك تفاضل بين الأربعة، وهناك من تتقدم الصف، مع الإقرار بأنهن أفضـــل النســـاء، فالمقدمة على الأربعة هي مريم ابنة عمران، لقول الله تعالى " إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ". [1]

---

١ – تحفة الأحوذي ٩ / ٣١٩ (فهذه الآية دلت على أنَّ مريم عليها السلام أفضل من الكُلِّ . وقَول مَنْ قال: « المراد أنها مُصْـطَفَاةٌ على عالمي زمانها ، فهذا تَرْكٌ للظاهر . .. وروى موســى بن عقبة عن كُريب عن ابن عباسٍ قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم– سَيِّدَةُ نساءِ العَالَمِينَ مَرْيَمُ ثُمَّ فَاطِمَة ، ثُمَّ خَدِيْجَةُ ، ثُمَّ آســيَةُ « قال القرطبي : خصَّ الله مريَم بما لم يؤتِهِ أحداً من النســاء؛ وذلك أن رُوحَ القدس كلَّمها ، وظهر لها ونفخ في دِرْعها ، ودنا منها للنفخة ، وليس هذا لأحد من النساء ، وصدَّقت بكلمات ربِّها ، لم تَسأَلْ آيةً عندما بُشرَت– كما سأل زكريا– من الآية ، ولذلك سمَّاها الله– تعالى– في تنزيله : صِدِّيقةً ، قال » وأُمُّهُ صِـدِّيقَةٌ « وقال : ﴿...وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ [سورة التحريم:١٢] فشـهد لها بالصديقية وشهد لها بالتصديق بكلمات البشرى ، وشهد لها بالقنوت؛ ولما بُشِّرَ زكريا بالغلام لحظ إلى كِبَر سِــنِّه ، وعقم رحم امرأته فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ ...﴾ [سورة آل عمران:٤٠] ، فسأل آية. وبشرت مريم بالغلام فلحظت أنها بكر، ولم يَمْسَسْها بَشَر، فقيل لها كذلك قال رَبُّكِ فاقتصــرت على ذلك، وصــدَّقت بكلمات ربها، ولم تسـأل آية، فمن يَعْلم كُنه هذا الأمر، ومن لامرأة في جميع نســاء العالمين من بنات آدمَ ما لها من هذه المناقب؟) [1] فهذه كلها أدلة على تقدم السيدة مريم على الجميع، وأدخل البعض السيدة عائشة في هذا التفاضل لرواية " وفضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام" (قال السُّبْكِيُّ الْكَبِيرُ الَّذِي نَدِينُ اللَّهَ بِهِ أَنَّ فَاطِمَةَ أَفْضَلُ ثُمَّ خَدِيجَةَ ثُمَّ عَائِشَــةَ وَالْخِلَافُ شَـهِيرٌ وَلَكِنَّ الْحَقَّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ بِهِ. وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : جِهَاتُ الْفَضْــلِ بَيْنَ خَدِيجَةَ وَعَائِشَةَ مُتَقَارِبَةٌ وَكَأَنَّهُ رَأَى التَّوَقُّفَ ، وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : إِنْ أُرِيدَ بِالتَّفْضِيلِ كَثْرَةُ الثَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ فَذَاكَ أَمْرٌ لَا يُطَّلَعُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ عَمَلَ الْقُلُوبِ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِ الْجَوَارِحِ ، وَإِنْ أُرِيدَ كَثْرَةُ الْعِلْمِ فَعَائِشَـةُ لَا مَحَالَةَ ، وَإِنْ أُرِيدَ شَـرَفُ الْأَصْـلِ فَفَاطِمَةُ لَا مَحَالَةَ وَهِيَ فَضِـيلَةٌ لَا يُشَـارِكُهَا فِيهَا غَيْرُ أُخُوَّتِهَا ، وَإِنْ أُرِيدَ شَـرَفُ السِّــيَادَةِ فَقَدْ ثَبَتَ النَّصُّ لِفَاطِمَةَ وَحْدَهَا. قَالَ الْحَافِظُ: اِمْتَازَتْ فَاطِمَةُ عَنْ أَخَوَاتِهَا بِأَنَّهُنَّ مُتْنَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا مَا اِمْتَازَتْ بِهِ عَائِشَةُ مِنْ فَضْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّ لِخَدِيجَةَ مَا يُقَابِلُهُ وَهِيَ أَنَّهَا أَوَّلُ مَنْ أَجَابَ إِلَى الْإِسْــلَامِ وَدَعَا إِلَيْهِ وَأَعَانَ عَلَى ثُبُوتِهِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالتَّوَجُّهِ التَّامِّ. فَلَهَا مِثْلُ أَجْرِ مَنْ جَاءَ بَعْدَهَا وَلَا يُقَدِّرُ قَدْرَ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، وَقِيلَ اِنْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَفْضَــلِيَّةِ فَاطِمَةَ، وَبَقِيَ الْخِلَافُ بَيْنَ عَائِشَــةَ وَخَدِيجَةَ اِنْتَهَى.... وقيل أَنَّ أَفْضَــلَ النِّسَــاءِ مَرْيَمُ وَفَاطِمَةُ وَأَفْضَــلُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةُ وَعَائِشَــةُ. وَفِي التَّفْضِــيلِ بَيْنَهُمَا أَقْوَالٌ ثَالِثُهَا التَّوَقُّفُ. قَالَ الْقَارِي: التَّوَقُّفُ فِي حَقِّ الْكُلِّ أَوْلَى، إِذْ لَيْسَ فِي الْمَسْـأَلَةِ دَلِيلٌ قَطْعِيٌّ وَالظَّنِّيَّاتُ مُتَعَارِضَةٌ غَيْرُ مُفِيدَةٍ لِلْعَقَائِدِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْيَقِينِيَّاتِ اِنْتَهَى

لكني أميل إلى رأي الإمام النووي حيث **قال:** (الْأَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا خَيْرُ نِسَاءِ الْأَرْضِ فِي عَصْرِهَا، وَأَمَّا التَّفْضِيلُ بَيْنَهُمَا فَمَسْكُوتٌ عَنْهُ.) [1]

ويؤكد هذا أن الروايات المتنوعة جاءت بتقديم كل واحدة منهن مرة، فعند ابن كثير قدمت السيدة خديجة ثم فاطمة ثم مريم ثم آسية.

وعند الإمام أحمد روايتان: الأولى قُدّمت فيها السيدة مريم، فالسيدة خديجة، فالسيدة فاطمة، فالسيدة آسية، والأخرى قُدمت فيها السيدة خديجة.

لكن الملاحظ أن السيدة خديجة والسيدة فاطمة اقترنتا في جميع الروايات سواء في المقدمة، أو في الوسط، أو في الخاتمة.

وأقصد من هذا: أن التفاضل لم يكن مقصودا من رسم الخطوط، فلم يشر إلى أن الخط الأول هو كذا، والثاني كذا...، ولم يشر أيضا إلى استواء، أو اعوجاج، ولم يشر إلى طول خط دون آخر، إنما فقط أربعة خطوط، فالكل سواء، وهذا يعني أن ا المقصود – كما أفهم – الإشارة إلى السيادة، والكمال، والخيرية، والقدوة للجميع، رضي الله عنهن جميعا.

١- تحفة الأحوذي شرح صحيح الترمذي ٩ / ٣١٩

البيان بالحص

قلت إن إيصـال المعلومة إلى المتلقي واضـحة جلية هو هدف من أهداف البلاغة العربية، وحين تعبر عن معنى ما، ثم تســتعين بوســيلة من وســائل الإيضـــاح، فليس معنى ذلك أن اللفظ قد عجز عن حمل المراد، وإنما تريد أن تنقل للمتلقي مدى أهمية المعنى، وخطورته، وحرصــك على وصــوله إليه دون لبس أو غموض، لأجل ذلك تستعين بكل وسيلة توضيحية، لتكشف عن مرادك.

ولا شك أن المتكلم يستعين بما يراه متاحا أمامه من وسائل، وكلما تعددت الوسائل، وتنوعت زاد البيان عن المعاني، وأنا هنا أدعو كل من يتصدي للتعليم والبيان أن يسلك هذا السبيل، وأن يستفيد من شتى الوسائل التوضيحية التي ملأت الدنيا – سواء منها المسموعة أو المرئية– كما تعلمنا من النبي ﷺ.

وتعال معي نقف على واحد من هذه الأحاديث، فعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قَالَ النَّبِيّ – ﷺ– **هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذِهِ وَمَا هَذِهِ؟ (وَرَمَى بِحَصَاتَيْنِ) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: هَذَاكَ الأَمَلُ، وَهَذَاكَ الأَجَلُ)**[1]

يقول المناوي في معنى الحديث: (قَوْلُهُ: "مَا مَثَلُ هَذِهِ وَهَذِهِ": أيْ هَذِهِ الْحَصَاةِ وَهَذِهِ الْحَصَاةِ (وَرَمَى بِحَصَاتَيْنِ) **أَيْ:** إِحْدَاهُمَا قَرِيبَةٌ وَالْأُخْرَى بَعِيدَةٌ، وَالْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ.

(هَذَاك) أَيْ هَذَا الْحَصَاءُ الْمَرْمِيُّ بَعِيدًا (الْأَمَلُ). أَيْ: مَرْجُوُّهُ وَمَأْمُولُهُ الَّذِي يُظَنُّ أَنَّهُ يُدْرِكُهُ قَبْلَ حُلُولِ أَجَلِهِ. (وَهَذَاك)، أَيْ الْحَصَاءُ الْمَرْمِيُّ

1 – سنن الترمذي ١٠ / ٥٢

قَرِيبًا:(الْأَجَلُ). أَيْ: مَوْتُهُ فَيَشْـتَغِلُ الْإِنْسَـانُ بِمَا يَأْمُلُهُ وَيُرِيدُ أَنْ يُحَصِّـلَهُ فَيَلْحَقُهُ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَهُ.) [1]

فالحديث ينقل للمتلقي بعد المسـافة بين الأمل والأجل، وكان من الممكن **أن يقال:** إن الأمل بعيد جدا، والأجل قريب جدا، وهكذا ينتقل المعنى من خلال اللفظ إلى الذهن، فيقوم الذهن بتصـور المسـافة الفارقة بينهما، ويظل المعني حبيس كل واحد بحسب ما يراه من بُعدٍ بين الأجل والأمل، لكن رسول الله سلك طريقا آخر للبيان وهو طريق التمثيل الحسي، فأشرك الصحابة معه في تصوير المعنى، حيث عاينوا بأنفسـهم هذا البعد بين الأمرين، فأخذ حصـاتين، ثم رمى بالأولى في جهة، وبالأخرى في الجهة المقابلة، ثم حرك الأذهان، واسـتثارها بالسؤال عن هذا الذي يرونه أمامهم من بعد بين الحصاتين، وهنا أصبح الذهن في أتم الاسـتعداد لتلقي المعنى دون لبس، فقال: " هذاك " بالإشـارة إلى البعيد الأمل " وهذاك " بالإشارة أيضا إلى الأجل، فلقد اتسعت المسافة بينهما، وهاهم يرون ذلك عيانا، وليس الخبر كالمعاينة.

****

ومن نماذج اسـتخدام الحصـى في البيان عن المعاني ما رواه سـيدنا أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ **قالَ:** (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –فِي بَيْتِ بَعْضِ نِسَائِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْمَسْجِدَيْنِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى؟ قَالَ: فَأَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ، فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ، ثُمَّ قَالَ: هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا..... لِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ) [2]

١- تحفة الأحوذي ٧ / ١٨٩

٢- صحيح مسلم – كتاب الحج باب بيان المسجد الذي أسس على التقوى

ولقد حصـــل الخلاف في تعيين المســـجد الذي أســـس على التقوى، **فقيل:** إنه مســـجد قباء، لقوله بعده " فيه رجال يحبون أن يطهروا " **وقيل:** إنه مسـجد الرسـول – ﷺ– لصـريح هذا الحديث في تعيينه، والحق كما **قال ابن حجر:** (أن كلا منهمـا أســـس على التقوى، **وقولـه تعـالى:** في بقيـة الآيـة ﴿...فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ ...﴾ [ســورة التوبة:١٠٨] يفيد أن المراد مســـجد قباء فتعارض ظاهر الآية مع صـــريح الحديث، وعلى هذا فالســـر في جوابه بأن المسـجد الذي أسـس على التقوى مسـجده – ﷺ–رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء)[1]

وهذه لفتـة جليلـة من الإمـام ابن حجر، فلمـا كـان هنـاك لبس في تعيين المســـجد بســـبب **قوله** " (فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ)، لنزولها في أهل قباء كان التأكيد بأنه مسجد المدينة، وضرب الأرض بالحصياء رافع لكل توهم، ومزيل لكل شـــك، وناف لكل ريب، حيث نقل إلى المتلقي المعنى مصـــحوبا بمشـــهد تصـــويري لا يدع لأحد بعده شـــك في أن المســـجد المراد هو مســـجد النبي – ﷺ– في المدينة، وقد كان الإمام النووي أكثر صـــراحة في التعبير فقال: (هذا نص بأنه – يعني مسجد المدينة – المسجد الذي أسس على التقوى، وردّ لما ذكره بعض المفســرين أنه مســجد قباء، وأما أخذه الحصــباء وضــربه في الأرض فالمراد به المبالغة في الإيضاح لبيان أنه مسجد المدينة)[2]

---

١ – فتح الباري لابن حجر ١١ / ٢٢٦

٢– شرح النووي على صحيح مسلم ٥ / ٦١

البيان بالعصى

تظل العصى هي الوسيلة الأكثر شيوعا في يد المتحدثين، فبها يُشار، وبها يُخط، وبها يصور المعنى المراد ويرسم، وقد جاء مثل ذلك في حديث النبي – ﷺ – ومن أبرز النماذج في ذلك ما رواه سيدنا أنس بن مالك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الْوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الْوَرَقُ **فَقَالَ إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ الْعَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)** [1]

وروى القرطبي عن قتادة: أن رسول الله – ﷺ – أخذ غصنا فخرطه، حتى سقط ورقه **وقال:** " إن المسلم إذا قال سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تحاتت خطاياه، كما تحات هذا. خذهن إليك أبا الدرداء، قبل أن يحال بينك وبينهن، فإنهن من كنوز الجنة، وصفايا الكلام، وهن الباقيات الصالحات" [2]

والقارئ يدرك الفرق بين إلقاء المعنى مجردا، وبين الاستعانة بهذا العود، أو تلك العصى، فالنظر إلى هذه الشجرة وورقها يتناثر أمام العيون، ويذهب يمنة ويسرة متباعدا عنها يحفر في الذهن صورة المعنى المراد توصيلة، وهو أن هذه التسبيحات تصنع في الإنسان ما صنعته العصى، فهي تهز الجسد هزا شديدا، فتطرح عنه خبثه من الذنوب والخطايا، وتفرقها عنه، حتى لا تعود بينها وبين الجسد علاقة.

١- سنن الترمذي ١١ /٤٤٠

٢ – سنن الترمذي ١١/ ٤٤٠ وجامع العلوم والحكم لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي دار المعرفة– بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ١٩ / ٣٧، وانظر القرطبي ١٠ / ٤١٥

كذلك الحال في الصــورة الثانية التي أزال فيها رســول الله الأوراق بيده، فالقصــد من الصــورتين إيصــال هذا المشــهد إلى الذهن ليرى الذنوب والخطايا وهي تتســاقط بفعل هذه التســبيحات، فالذهن حين يرى المعنى مصــورا أمامه يفســح له بابا ليســتقر فيه، فالمعاني المصــورة تدخل إليه دخول المأنوس به، ويزيد من هذا الأنس ما يحصــل في كثير من النماذج من اســتثارة وتنشــيط بالسؤال، ومن ذلك ما رواه سيدنا أبو سعيد الْخُدْرِيِّ: **(أَنَّ النَّبِيَّ غَرَزَ بَيْنَ يَدَيْهِ عودا، ثُمَّ غَرَزَ إِلَى جَنْبِهِ آخَرَ، ثُمَّ غَرَزَ الثَّالِثَ فَأَبْعَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**

قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُــولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: هَذَا الإِنْسَــانُ وَهَذَا أَجَلُهُ، وَهَذَا أَمَلُهُ، يَتَعَاطَى الأَمَلَ وَالأَجَلُ يَخْتَلِجُهُ دُونَ ذَلِكَ) [1]

فقضــية الأجل والأمل، وهي ملخص الحياة البشــرية، كانت شــاغلة بال رســـول اللهﷺ، فصــــورها مرة بالخطوط، وصــــورها أخرى بالحصـــى، وها هو يصــــورها هنا بالغرز في الأرض، لكن الأحاديث كلها متوافقة على أن الأجل أقرب من الأمل، وفي كل مشهد يخرج المعنى صارخا في الناس بصوت جديد، فهو تارة يقول: إن الأمل يذهب بعيدا، في الوقت الذي يأتي الأجل ليقطعه قبل اكتماله، وتارة أخرى يظهر في صــــورة الشــــيئين المتنافرين، فهذا يذهب في جهة، وهذا يذهب في جهة مقابلة، كما جاء في صورة الحصى.

أمـا هنـا فـالصــــورة المرســــومـة تشــــكلـت من خلال غرز الأعواد في الأرض، وأنا هنا اســتحضــر هذا المشــهد، فالرســول ﷺ جالس، وحوله الصحابة فيأخذ عودا فيغرسه في الأرض، ثم يأخذ آخر فيغرسه بجواره، ثم يأخذ

١- مسند الإمام أحمد ٢٢ / ٢٥٢

ثالثا فيغرسه بعيدا، وهنا يكتمل المشهد، ويبقى البيان، والتحليل، لكن رسول الله لا يبدأ التحليل مباشـــرة، بل يثير العقول، ويلفت الانتباه، من خلال الســؤال " أتدرون ما هذا؟

والصـــحابة لا تعرف ما المقصـــود من هذه الصـــورة، فيجيبون بالنفي، فيقول – ﷺ– موضـحا وهم ينظرون إلى هذا المشـهد البياني، هذا – يقصـد العود القريب – الإنسان، وهذا – يقصد العود الذي بجواره – هو أجله، فالإنسان والأجل متقاربان، فالأجل أقرب إليه من شــراك نعله، وهنا يرتســم في عقل كل مشاهد هذا التلازم بين الإنسان وأجله،.... ولكن ما هذا العود البعيد؟

وقبل السؤال تأتي الإجابة، إنه الأمل، الذي يشتط فيه الإنسان، فيرسمه بعيدا وشـتان بين الإنسـان وأمله... والتعبير عن الإنسـان وأمله وأجله بالغرس المغروس في الأرض، يشير إلى أن هذه الثلاثة ثابته، لا تتغير حقائقها، فكأنها مغروسـة في علم الغيب الذي لا يتبدل، فالأجل مع الإنسـان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وكذلك الأمل لكل إنســـان بعيد المنال أن يحققه في دنياه، فكل إنســـان لـه آمال عراض تبقى معه مادام حيا، ولكن هيهات أن تتحقق جميعا.